الموت في الشعر الجاهلي

تاليف

دكتور
حسني أحمد عبد الحميد عبد السلام
المدرس بقسم الأدب والنقد
فى كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر - بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف جامع الأزهر

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى امتحن الانسان بالحياة ، وجعل الموت مصيره والآخرة منتهاه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ٠٠٠ وبعد

فلقد شغلت منذ وقت غير قصير بفكرة هذا البحث (رؤية الشاعر الجاهلى للموت واحساسه به وعقيدته فيه) ٠

وما زالت الفكرة تراودنى ، تجىء وتذهب ، وتلوح وتغمض ، حتى قدر الله لى أن أعيش بعض الزمن فى احدى مناطق شبه جزيرة العرب ، فملأت عينى من مظاهرها الطبيعية ، وأحسست بنفسى بعض ظواهرها المناخية ، وسرحت بخواطرى لأتخيل أهل هذه المناطق كيف كانوا يعيشون ؟ وبماذا كانوا يشعرون ؟ قبل الاختراعات الحديثة التى ذللت الصعاب وعمرت اليباب ٠ فتبلورت الفكرة واستقرت ، واقامت ولم تذهب ، وأيقنت بأنه لا بد أن يكون الجاهليون أحسوا بالموت احساسا شديدا ، وقد كانوا يلاقونه فى كل وقت ، ويتخيلونه فى كل شبر ٠

فقويت عزيمتى ، ومضت ارادتى للكتابة فى هذا الموضوع ، فرحت أبحث عن الدوافع التى يمكن أن تزيد احساسهم بالموت ـ وأنا أعلم أن كراهية الموت جزء من فطرة الانسان ، وأن حب البقاء جبلة فى طبعه ـ لكن الذى يزيد من هذه الكراهية ويضاعف القلق والخوف من ذهاب الحياة هو ما بحثت عنه عند الجاهليين ، وقد اهتديت الى

أن العوامل البيئية والظروف المعيشية والعوامل المتولدة من حياة الصحراء أسهمت بقدر كبير في زيادة احساس الجاهليين بالموت ، لكن العامل الأقوى كان افتقادهم الدين الصحيح واليقين بالآخرة ، فهما كفيلان بأن يغمرا النفس بالطمانينة ، ويملآها بالرضا والأمل ، وكل ذلك لم يكن عند الجاهليين .

ثم تتبعت أشعارهم التى عبرت عن موقفهم من الموت وحملت احساسهم به ، وصنفتها الى ثلاثة انماط هى : رثاء النفس - ورثاء الآخرين - والحكمة) .

ولقد ظهر لى أن شعراء كثيرين رثوا أنفسهم فى الجاهلية ، منهم الفارس الذى بكى نفسه وهو يحتضر بعد اصابته فى غارة ، أو ناح عليها ، وهو أسير ينتظر الموت ، ومنهم الشيخ الهرم الذى ذهبت قوته ، وأوشكت نهايته ، ومنهم المشهور ، وكثير منهم مغمور ، فترجمت لهم جميعا وأثبت أشعارهم التى رثوا فيها أنفسهم .

وفى رثاء الآخرين انتقيت النصوص التى يظهر فيها احساس الشعراء بالموت ، حتى لا تخرج الدراسة عن اطارها المرسوم لها ، ثم نظرت فى شعر الحكمة الذى تناولوا فيه قضية الموت ، واستخرجت منه عقيدتهم فيه ورؤيتهم له .

ثم درست بعد ذلك الخصائص الموضوعية والفنية لشعر الموت .
- وبعد فانى أعتقد أن هذه الدراسة تسكب مزيدا من الضوء على حياة العرب فى العصر الجاهلى ، وتجلى جانبا من مشاعرهم وتقدم صورة لخواطرهم وأفكارهم فى مواجهة الموت .

وارجو أن تكون هـذه الدراسـة اضـافة مفيدة وموفقـة فان تحقق الرجـاء ، فالحمد لله على توفيقـه وتسـديده ، وان لم يتحقق فحسبى انى لم ادخـر وسـعا ، ولم آلو جهـدا ، والله المستعان .

د. حسـن عبد السـلام

٢٥ من ربيع الآخر سنة ١٤١١ هـ

١٢ من نوفمبر سنة ١٩٩٠ م

البـــاب الأول

عوامل الاحساس بالموت عند الجاهليين

الفصـل الأول : طبيعـة بيئـة الصـحراء ٠

الفصل الثـانى : الحـــروب ٠

الفصل الثالث : الرحـــلة ٠

الفصل الرابع : افتقادهم الدين الصحيح ٠

الفصل الأول

طبيعة بيئة الصحراء

تؤثر كل بيئة فى أصحابها ، وتطبع تفكيرهم بطابعها ، وتوحى اليهم بكثير من أفكارهم ، وتصبغ الى حد بعيد مشاعرهم واحاسيسهم بصبغتها . يقول الأستاذ الزيات : « ولجو الاقليم أثر طبيعى فى حياة أهله ، فهو الذى ينهج لهم سنن معاشهم ونظام اجتماعهم ويكون الكثير الغالب من أخلاقهم وطباعهم »(١) .

وبيئة العرب قبل الاسلام هى بيئة صحراء شبه الجزيرة التى اثرت فى سائر نواحى حياتهم المادية والفكرية والعاطفية .

فى ذلك العصر لم يكن بوسع الانسان أن يسيطر على هذه الصحراء ليتجنب الكثير من أخطارها ، ولم يكن له بد من الشعور بالرهبة أمام اتساعها وترامى أطرافها ، وبالخوف من صعوبة طبيعتها ووعورة مسالكها ، وبالريبة مما تخفيه تلك الصحراء وراء جبالها وخلف هضابها وداخل أغوارها .

ان هذا الاحساس بالصحراء هو الاحساس الطبعى الذى يشترك فيه اغلب من عاش فى تلك البيئة وان ادعى بعضهم خلافه شجاعة وقوة .

بل انى لأظن أن الحديث الطويل عن الشجاعة والجسارة فى

---

(١) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ص ٨ .

مواجهة تلك البيئة - كما نجد فى الأدب الجاهلى - هو محاولة من الانسان أن يتقوى ويصبر على مقاومة هذه البيئة الجبارة والانتصار عليها .

اننا فى عصر الكهرباء والطائرة نشعر بكثير من الوحشة اذا تأملنا طبيعة شبه الجزيرة العربية ، وبقليل من التخيل يستطيع المرء أن يدرك مدى ما كان يعانيه الجاهليون فى مواجهة بيئتهم .

فى عصر الناقة والشاه والفرس واجه العرب بيئة الصحراء وعاشوا فيها بالخوف وبالحلم وبالحرب وبالشعر .

ويحسن بنا - ليتحول تخيلنا الى حقيقة - أن نعرف صفة شبه الجزيرة العربية وأن نقف على سمات التضاريس والمناخ فيها كما رصدها المتخصصون(١) .

١ - التضاريس :

ينقسم سطح شبه الجزيرة العربية الى الأقسام الآتية :

— **سهول تهامة :** وهى سهول ساحلية تمتد بمحاذاة ساحل البحر الأحمر من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ، ويختلف اتساعها من مكان الى آخر ، وهى سهول رملية وحصوية ، تنتشر المنصهرات البركانية فى بعض أجزائها ، وتجرى بها الوديان القصيرة التى تفيض بالمياه عقب سقوط الأمطار ، وتصب فى البحر الأحمر .

---

(٢) استقيت المعلومات فى هذا المبحث من كتاب جغرافية شبه جزيرة العرب ، ج ١ للدكتور محمود طه أبو العلا . ص ١٨ ، ٣٩ وما بعدها ط ١٢ - الأنجلو المصرية ١٩٧٧ م .

— **المرتفعات الغربية :** تمتد هذه المرتفعات موازية لسهول تهامة ، فتقع السهول بين الجبال والبحر الاحمر ، وتتسع المسافة بين المرتفعات والبحر حتى تبلغ أربعين كيلو مترا فى بعض المناطق ، وتضيق حتى تكاد تشرف المرتفعات على البحر مباشرة ، وتنقسم سلاسل المرتفعات هذه الى ثلاثة أقسام هى :

(أ) **مرتفعات الحجاز أو السراة :** ويطلق هذا الاسم على الجزء الممتد من رأس خليج العقبة جنوبا حتى عرض ٢٠ درجة شمالا ، وتتكون هذه المرتفعات من عدة سلاسل جبلية تتخللها الوديان الطويلة وبها ينابيع تغذيها المياه الجوفية ، وتتكون الجبال من صخور نارية ، وتكثر بها الوديان الجبلية والثنيات المنخفضة والكتل الانكسارية ، وتغطى الصخور البركانية بعض أجزائها ٠

(ب) **مرتفعات عسير :** وهى أكثر ارتفاعا من جبال الحجاز اذ يتراوح ارتفاعها بين خمسة آلاف وعشرة آلاف قدم ، والوديان فيها أكثر ماء وأكثر عددا من وديان جبال الحجاز نظرا لغزارة الأمطار بها ، وتمتد هذه الوديان من مرتفعات عسير الى ساحل البحر الأحمر فى تهامة عسير التى لا يزيد اتساعها كثيرا عن تهامة الحجاز ٠

(حـ) **مرتفعات اليمن :** وهى أشد ارتفاعا وأكثر امتدادا نحو الشرق من المرتفعات السابقة اذ تصل بعض قممها الى أربعة عشر الف قدم ، ويتراوح ارتفاعها - عامة - بين سبعة آلاف وعشرة آلاف قدم ، ويتدرج انحدار هضبة اليمن نحو الشرق ويزداد انحدارها نحو الغرب الي السهل الساحلي (تهامة اليمن)

وتمتد الوديان من حافة الهضبة الى السهل الساحلى الذى تكثر به السبخات والمستنقعات بجوار ساحل البحر الأحمر ، وتمتد هذه الوديان جهة الشرق حتى تنتهى فى رمال الربع الخالى .

— **الهضاب الغربية :** وهى الهضاب التى تلى المرتفعات الغربية فى منطقة جبال السراة من جهة الشرق وهى : **هضبة الحسمى ،** وتقع فى أقصى الشمال ويبلغ متوسط ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم وينحدر سطحها الى الشرق والشمال أيضا .

وهضبة عسير : وتقع جنوب هضبة الحجاز وهى أكثر تلك الهضاب ارتفاعا اذ يصل ارتفاعها ستة آلاف قدم ، وتقطعها أودية كثيرة .

— **السهول والمرتفعات الجنوبية :** وتنحدر هذه المرتفعات من الغرب الى الشرق ، والأجزاء الغربية منها أقل ارتفاعا من هضبة اليمن بقليل ، ويقل الارتفاع من جهة الشرق ليتراوح بين ثلاثة آلاف قدم وستمائة قدم ، ويمتد وادى حضرموت فى هذه المرتفعات موازيا لساحل البحر العربى ، ثم ينحدر فجأة الى الجنوب الشرقى ويصب فى البحر العربى .

— **اقليم مرتفعات عمان :** ويقع هذا الاقليم فى أقصى جنوب شرق شبه الجزيرة العربية ، وتختلف بنيته عن سائر أجزاء شبه الجزيرة ، وتتكون مرتفعات عمان من الصخور الرسوبية التى تعرضت لكثير من حركات القشرة الأرضية والتى أدت الى تكوين انكسارات وفوالق نتجت عنها الأودية الانكسارية والكتل القافزة فى أقصى شمال المرتفعات ، وتأخذ مرتفعات عمان شكل هضبة يبلغ ارتفاعها أربعة آلاف قدم ، وأعلى أجزائها حافة يتراوح ارتفاعها بين عشرة آلاف وتسعة آلاف قدم ، وتقطع الوديان الهضبة

الى الشرق متجهـة الى خليج عمان او الى الغـرب حيث تضـيع مياهها فى رمال الربـع الخـالى ٠

— **الأجـزاء الوسطى :** وأهم هذه الأجـزاء هضبة نجـد ، والنفـود الكبير ، والربع الخـالى ٠

وتمتد هضبة نجـد من المرتفعـات الغـربية غـربا الى هضـبة الصمان شرقا ومن النفود الكبير شـمالا حتى الربع الخالى جنوبا ، ويبلـغ أقصى ارتفاعها فى الغـرب ، ويقـل تدريجيا نحو الشرق ، ومتوسط ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم ٠ وتقـع فى هضبة نجـد جبـال طـويق وهى على هيئـة قوس يرتفـع الى ثلاثة آلاف وخمسمائة قدم ، وجبال شمر التى تقـع فى الشمال الغربى للهضبة ، ومتوسط ارتفاعها خمسـة آلاف قدم ٠ ويقع فى هضبة نجد أيضا نطاق الدهناء الرمـلى الذى يتراوح ارتفـاعه بين ألف وخمسمائة ، وألفى قدم ، وتجـرى فى الهضـبة عـدة أودية ٠ أما النفـود الكبيـر فهو على شـكل مثلث قاعدته فى الغـرب ورأسـه فى الشرق ، وتغطى الكثبان الرمليـة الكثيفة الحوض الذى يشغله هذا الجـزء ، وهى فى الغرب والجنوب أكثر منها ارتفـاعا فى الشرق والشـمال ٠ أما الربـع الخـالى فهو منطقة رملية واسـعة تمتـد من سفـوح المرتفعـات الغـربية غربا الى سفوح مرتفعـات عمان شرقا ، ومن هضبة نجـد شمالا الى هضبة حضرموت فى الجنوب ، وتمـلأ الكثبان الرمليـة الربع الخالى ، وتأخذ أشـكالا مختلفة ، فمنهـا المتحـرك ومنهـا الثابت ، وهى أكثـر ارتفـاعا فى الجنـوب والغـرب منهـا فى الشمال والشـرق ٠

- **حوض وادى سرحان :** ويقـع هذا الحوض غرب منطقة النفود الكبير وقد تكون نتيجـة حدوث انكسـارين كان اتجـاه أحدها من الشمال الغـربى الى الجنوب الشرقى واتجـاه الآخـر من الجنوب الغربى الى الشـمال الشرقى ٠
- **سهول الاحسـاء :** وتقـع فى شرقى شبه الجـزيرة العـربية ، وهى تنحـدر من الشرق والى الشمال الشرقى وتمتـد بها التكوينـات الرمليـة ٠

٢ ـ المنـاخ :

أدي تنوع التضـاريس فى شبه جـزيرة العرب بين جبال مرتفعـة ووديان منخفضـة وسهول الى اختـلاف مناخى بين أجزائها ، فالحـرارة ترتفـع جـدا فى الأجـزاء الداخلية وفى المنـاطق المنخفضـة صـيفا ، بينما تكون أقـل ارتفـاعا فى المنـاطق الساحلية والمرتفعات ٠ ويغلف المنـاخ الصحراوى شبه الجـزيرة كلها ما عدا الجـزء الجنوبى الغـربى منهـا ، وترتفـع درجة الحرارة صيفا حتى يبلـغ متوسط نهايتها العظمى ستة وأربعـين درجـة ، وتنخفض فى الشتاء الى ما يقـرب من درجـة الصفر ، وتزداد الرطوبة النسبية شتاء فى المنـاطق السـاحلية اذ يصـل معدلها سبعين فى المـائة ، وتقـل هذه النسبة فى المنـاطق الداخلية حيث يصـل معدلها خمسين فى المـائة ، وتنخفض هذه النسبة فى الصيف اذ يصـل معدلها فى المنـاطق الساحلية خمسين فى المـائة وفى المنـاطق الداخلية ثلاثين فى المـائة ٠

وتهب الـرياح والعواصف الرمليـة ، التى كثيـرا ما تضـر بالانسان والحيوان فى شبه جزيرة العرب ٠

وقد يتغير اتجاه الريح بين وقت وآخر ، والعرب تسمى الرياح التى تهب من جهات مختلفة الرياح المتذائبة تشبيها لها بالذئب وقد يكون ملحظ هذا التشبيه الفعل (الاتيان من جهات مختلفة) أو الصوت اذ تحدث الرياح الشديدة أصواتا أشبه ما تكون بعواء الذئب ٠

ويتولد من الصحراء عوامل أخرى جعلت الاحساس بالموت عند الجاهليين قويا ، فالمصدر الوحيد للمياه فى شبه جزيرتهم كان المطر والعيون ، والماء هو سر الحياة وعمادها ، وفى حياة تعتمد على الرعى فى أكثر الأماكن ومعظم الأحيان يصبح الماء ثروة ثمينة تشتعل بسببها الحروب ، فقلة الخير والشح بأسباب الحياة من طعام وشراب كان هو الطابع العام الغالب على شبه جزيرة العرب ٠

اذا أضيف الى ذلك حرارة الجو فى الصيف بدرجة عالية ، وضرورة الترحل من مكان الى آخر بحثا عن العشب ، مع وعورة المسالك وصعوبة الطرق وندرة الظل وقلة الأشجار عرفنا الى أى حد كان الاحساس بالموت والخوف من الهلاك يملأ حياة الصحراء ٠ والخوف من الهلاك فى تلك البيئة لا يقل فى الشتاء عنه فى الصيف فقد يأتى المطر سيولا مهلكة ، وقد ينـدر حتى يتبدد الأمل فى أن ينبت زرع أو يدر ضرع ٠

وفى الشتاء يسد الضباب الأفق فى بعض الأماكن - أحيانا - حتى يشتبه النهار بالليل ، فتتعذر الرؤية ويصبح الهلاك أمرا محتملا بسبب ما يمكن حدوثه فى تلك الأجواء من اصطدام بحجر أو سقوط فى واد أو غير ذلك ٠

وقد يشتد البرد حاملا معه الحمى ونذر الموت فى بعض الأحيان ٠

ومن العوامل التى تولدت من الصحراء ، وزادت من احساس الجاهلى

بالموت كذلك ، انتشار أنواع الحيوان المفترس فى تلك البيئة كالأسد والذئاب والضبع ، وأنواع الحشرات القاتلة كالحيات والثعابين ، ثم ما كان يتخيله ساكنو الصحراء من أشباح وأرواح وجن ومخلوقات لا يرونها ، لكنهم كانوا يعتقدون أنها تسرح فى صحرائهم وتصيح فتملأ الجو من حولهم بالفزع والرعب ٠

ولقد صور الشعراء الجاهليون هذه الصحراء الرهيبة التى يتخيل الموت كامنا فى كل شبر منها ، ووصفوها بما رأوه فيها ، وبما تخيلوه منها ٠ وعبروا عن احساسهم بذلك كله ، والمحوا الى العوامل التى سبق الحديث عنها ـ أحيانا ـ وصرحوا بها فى كثير من الأحيان ٠

يقول الأعشى فى معلقته (٣) :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة — للجن بالليل فى حافاتها زجل

لا يتنمى لها بالقيظ يركبها — الا الذين لهم فيما أتوا مهل

جاوزتها بطليح جسرة سرح — فى مرفقيها اذا استعرضتها فتل

(والبلدة : القطعة من الأرض ٠ وشبهها بالترس لبيان أنها غليظة وصعبة على من ينفذ فيها ٠ موحشة : كثيرة الوحش ٠ الزجل : الصوت ٠ حافاتها : نواحيها : يتنمى : يرتفع ٠ القيظ : شدة الصيف ٠ مهل : أناة وصبر ٠ طليح : مهزولة لكثرة أسفارها ٠ جسرة : ضخمة ٠ سرح : سريعة ٠ فتل : قوة وصلابة) ٠

وبيئة بهذا الوصف تتطلب من أهلها اعداد الرواحل القوية

---

(٣) راجع شرح القصائد العشر للتبريزى ص ٣٤٠ ، تحقيق عبد السلام الحوفى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ٠

الشـديدة التى تصـبر على العطش والجـوع ، وتتحمل مشقة السـير فى تلك الأرض الصعبة وتقدر على الصعود والهبوط ، ولهذا أبدع الجاهليون فى وصف نوقهم التى كانوا يسافرون عليها ، ووصفوها بالقـوة والسـرعة والتحمـل والصـبر ٠

فى أبيات أخـرى للأعشى ٠ يصور الفلاة مقفرة شحيحة بالخير ، لا تجـد الابل فيهـا ما تطعمه ، فتتسلى بالاجتـرار ، ويقول انه تجاوزها بنـاقة نشيطة قـوية مسرعة شـديدة ، كانت ترجم المرتفعات باخفـافها الصلبة ، فتشـق ما فيهـا من حصى شـقا ، ثم يشبهها بحمـار الوحش وبثـوره فى السـرعة والنشـاط ٠

يقول الأعشى(٤) :

وفـلاة كانهـا ظهـر تـرس　　　ليس الا الرجيـع فيهـا عـلاق

قـد تجـاوزتها وتحتى مـروح　　　عنتـريس نعـابة معنـاق

عـرمس ترجـم الآكام باخفـا　　　ف صـلاب منهـا الحصى آفـلاق

ويصف سـويد بن أبى كاهل(٥) الصـحراء وما يتراءى فيهـا من سراب خادع يحسـبه الظمـآن مـاء حتى اذا جـاءه لم يجـده شـيئا ، وما يطير خلالها من رياح حارة تصيب الرأس بالدوار ، فيقول(٦) :

١ ـ كم قطعنا دون سلمى مهمها　　　نـازح الغـور اذا الآل لمـع

---

(٤) انظر : العصر الجاهلى ، د٠ شوقى ضيف ص ٣٥٤ ٠

(٥) سويد بن أبى كاهل شاعر مخضرم أدرك الاسلام وعاش فى الجاهلية دهـرا ٠

(٦) انظر شرح المفضليات : تحقيق على محمد البجاوى ، القسم الثانى ص ٧٠٩ ٠

(المهمه : القفـر • وقــوله : دون سلمى ، أى مهمها قاصــراً عن بلاد سلمى بعيد الغــور • والمعنى : كم من مفــازة ركبناها وقطعناها لبعدنا عن هذه المــرأة حتى وصلنا اليهــا • واذ الآل : ظــرف لقطعنــا ، يريد قطعنا الشقة اليها فى الهاجرة) •

٢ - فى حرور ينضج اللحم بها   يأخــذ الســائر فيهــا كالصــقع

(الحــرور : يكون بالليــل والنهار ، وهو فعول من الريح الحارة • وقــوله : ينضج اللحم بها : من صفة الحــرور • والصقع : حــرارة تصيب الرأس ، وأصله الضرب على الشىء اليــابس ، وقيــل : الصــقع دوران فى الــرأس •

٣ - وتخطيت اليهــا من عــدا   بزمــاع الأمــر والهــم الكتــع

(المعنى : وكم تخطيت اليها من عــدا - وزماع الأمــر : الأخــذ فيــه • والهم الكتــع : يعنى الهم الملازم) •

٤ - وفــلاة واضــح اقــرابها   باليــات مثــل مــرفت القــزع

(الأقــراب : الخواصر ، وهو هنا تشبيه ، أراد جوانبها وأطرافها التى هى منها بمنزلة الخواصر من النــاس ، وجعلها واضحة لبيــانها ، وباليــات : حال • وشبهها بما ارفت من الســحاب أى تكسر وصار رفاتا ، وكذلك القزع ، واحدتها قزعة ، وهى قطع الشعر المتفرقة) •

٥ - يسبح الآل على أعلامهــا   وعلى البيــد اذا اليــوم متــع

(الآل : السراب • والأعــلام : الجبال • والبيد : جمع بيداء وهى القفر ، ومتع النهــار : اذا ارتفــع) •

٦ - فركبنــاها على مجهولهــا   بصــلاب الأرض فيهــن شــجع

(اعتسفناها على غير قصد وهداية • وصلاب الأرض : الخيل) •

أما امــرؤ القيس فيصف الصحراء فى الشتاء ، مصــور أمطــارها الغــزيرة وسيولها المهلكة التى تجــرف فى طريقها جذوع النخــل ، وتهدم البيوت وتغــرق السباع ، وتفــزع الوعــول ، وتلقى فى نفس الانســان بالفــزع والخوف من الهــلاك فيقول(٧) :

أصــاح ترى برقا كأن وميضــه	**كلمــع اليــدين فى حبى مكلل(٨)**
يضىء ســناه أو مصابيح راهب	**اهان السليط فى الذبال المقتل(٩)**
قعدت له وصحبتى بين ضــارج	**وبين اكــام بعــدما متامــــل(١٠)**
وأضحى يسح الماء عن كل فيقة	**يكبعلى الأذقان دوح الكنهبل(١١)**
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة	**ولا أطما الا مشيدا بجنــدل(١٢)**
كأن طميــــة المجيمــر غــــدوة	**من السيل والغثاء فلكة مغزل(١٣)**
كأن أبــانا فى أفــانين ودقــــة	**كبير أناس فى بجــاد مزمل(١٤)**

(٧) الأبيات من معلقته : راجع شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ٣٠ - والعصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ، وشرح القصائد السبع الطوال للانبارى وشرح القصائد المشهورات لابن النحاس ، وشرح المعلقــات للتبريزى .

(٨) صاح : ترخيم صاحب . وميض البرق : لمعانه . الحبى من السحاب: المتراكم ، أو الدانى من الأرض . المكلل : المتراكم أيضا .

(٩) السليط : الزيت . الذبال : الفتائل ، وأهان السليط : يعنى أكثر من الزيت ، كناية عن شدة الضوء .

(١٠) ضارج واكام : موضعان .

(١١) الفيقة : ما بين الحلبتين . يريد أنه يسح ثم يسكن ثم يسح وهكذا . وعن هنــا بمعنى بعد . يكب على الأذقــان : يلقى على الوجه . والكنهبل : شجر العضاة العظيم . والدوح : الشجر الكثير الأغصان والورق .

(١٢) الأطم : البيت .

(١٣) طمية : جبل المجيمر : مكان . الغثاء : ما يحمــله السيل . فلكة المغزل : ما استدار فوق رأسه .

(١٤) أبان : جبل . افانين : ضروب . الودق : المطر . البجاد : كساء مخطط .

والقى بصحراء الغبيط بعاعه
نزول اليمانى ذى العياب المخول(١٥)

كان سباعا فيه غرقى غدية
بارجائه القصوى أنابيش عنصل(١٦)

على قطن بالشيم ايمن صوبه وايسره علي الستار فيذبل(١٧)

القى ببسيان فى الليل بركه فانزل منه العصم من كل منزل

فى الأبيات السابقة وصف امرؤ القيس البرق الذى يلمع وسط السحاب المتراكم ، وهو يسبق المطر الشديد - غالبا - وتحدث عن السيل المنهمر الذى جرف كل شىء فى طريقة ، واقتلع الأشجار من جذورها وهدم البيوت الا ما شيد بالصخر منها ، وأشار الى ما يحمله السيل من غثاء ، يلقيه على الأرض والجبال فيخططها ويلونها ، فتبدو كأنها فرشت بالبرود الزاهية الألوان ، ويتراءى جبل أبان بعد أن غطاه السيل بغثائه وأوراق الشجر التى يحملها مثل شيخ ملتف فى كساء مخطط . ووصف الشاعر السباع التى أغرقها السيل ، وهى ترفع رؤوسها مخافة الغرق فتظهر تلك الرءوس كأنها جذور البصل البرى، والوعول التى نزلت من منازلها فوق الجبال هربا من الغرق .

وأخبر الشاعر أن السحاب كان يسد الأفق حتى يظن من يراه أنه ممتد من ديار بنى أسد الى ما وراء بلاد البحرين .

---

(١٥) الغبيط : موضع . بعاعه : ثقله . العياب : الحقائب . المخول : كثير المتاع .
(١٦) غدية : فى الصباح . أنابيش العنصل : جذور البصل البرى .
(١٧) قطن : اسم جبل فى ديار بنى أسد . الشيم : النظر الى البرق والمطر . الستار ويذبل : جبلان .

وتبدو الصحراء فى شعر عمرو بن معد يكرب واسعة مهلكة للمطى ، يربض بها الذؤبان ، وتصيح بها الجنان ، وتتناثر على جوانبها الأشلاء والعظام فيقول(١٨) :

فكم من غائط من دون سلمى
قليل الانس ليس به كتيع

به السرحان مفترشا يديه　　كأن بياض لبته الصديع

وارض قد قطعت بها الهواهى　　من الجنان سربخها مليع

ترى جيف المطى بحافتيه　　كأن عظامها الرخم الوقوع

وللمرقش الأكبر(١٩) وصف جيد للصحراء ، يرينا الى أى مدى كانت هذه الصحراء مرهوبة موحشة ، فهى قفر يدوى فيها الصوت لخلائها ، غبراء مهلكة تصيح فى أرجائها البوم ، وتنضى فى قطعها الناقة ، وتسرح بها الذئاب الجائعة ، جبالها شاهقة غبراء ، وليلها دامس طويل ، ورياحها شديدة مؤذية ٠

يقول المرقش الأكبر(٢٠) :

---

(١٨) أنظر الأصمعيات ص ١٧٦ ، الغائط : المطمئن من الأرض الواسع ٠ كتيع : أحد ٠ السرحان : الذئب : اللبة : وسط الصدر ٠ الصديع : الصبح ٠ الهواهى : ضوضاة الجن ٠ الواحد هوهاة ٠ السربخ : ما بينها وبين أرض أخرى ٠ المليع : الواسع من الأرض ٠

(١٩) شاعر جاهلى عاصر المهلهل وشهد حرب البسوس ، واسمه عمرو ابن سعد بن مالك ، والمرقش لقبه ٠

(٢٠) شرح المفضليات : القسم الثانى ص ٨٢٢ ٠

ودوية غبــراء قـد طـال عهــدها

تهــالك فيهــا الورد والمــرء ناعس(٢١)

قطعـت الى معـروفهـا منكـراتهـا

بعيهـامة تنسـل والليـل دامس(٢٢)

تركـت بهـا ليــلا طــويلا ومنـزلا

ومـوقد نـار لم ترمـه القـوابس(٢٣)

وتسـمع تزقـاء مـن البــوم حولنـا

كما ضـربت بعد الهـدوء النواقس(٢٤)

وتصـبح كالـدوداة نـاط زمامهـا

الى شعب فيها الجوارى العوانس(٢٥)

ولمـا اضـانا النــار عنـد نزولنـا

عـرانا عليهـا اطلس اللـون بائس(٢٦)

نبـذت اليــه فـلذة مـن شـوائنا

حيـاء وما فحشى على من اجـالس(٢٧)

---

(٢١) دوية : منسوبة الى الدو ، وهى القفر التى يدوى فيهـا الصوت لخلائها ، تهالك : تسرع السير ، والورد هنا : الابل يعنى الواردة والتقدير ذو الورد .

(٢٢) قطعت ما لا يعرف من هذه الصحراء حتى صرت الى ما يعـرف . العيهامة : الناقة القوية الجـريئة تنسل : أى تنفذ نفاذا حثيثا .

(٢٣) تركت بها .. الخ . قطعتها وقد بقيت من الليل بقية ، وقـوله : لم ترمه القوابس : لأنه كان وحده لا أنيس له الا الوحش .

(٢٤) التزقاء : تفعال من الزقاء وهو صوت البوم .

(٢٥) الدوداة : الأرجوحة ، يقـول : تصبح النـاقة وكأنها لاضطرابها أرجوحة الصبيان ، والمـراد أن المنزل الذى نزله كان محبس سوء كان هو وناقته فيه فى اضطراب شديد .

(٢٦) أطلس بائس : ذئب جـائع .

(٢٧) نبذت : رميت . فلذة : قطعة .

فـآض بهـا جــذلان ينفـض رأســه
كما آب بالنهب الكمى المخـالس(٢٨)

واعــرض أعــلام كـان رءوسـها

رءوس رجـال فى خليج تغـامس(٢٩)

اذا عـــلم خلفتــه يهتـــدى بــه
بدا عـلم فى الآل اغبــر طـامس(٣٠)

أما الصـحراء عند بشر بن أبى خازم فهى خرق مخوف ، تعـزف فيـه الجنـان ، وتهب خـلاله الرياح الشـديدة الحـارة ، ويلمع فيـه السـراب ، هذه الصحراء الرهيبة كان الشـاعر يقطعها بناقته فتبريهـا وتذهب لحمها وشحمها وقوتها ٠

يقـول بشـر (٣١) :

١ ـ وخرق تعزف الجنان فيــه فيافيـــه يخـــربها الســـهام

(السهام : شئ أبيض يسقط من السـماء اذا حميت الشمس وانتصف النهـار) ٠ ويروى : يطير بها السهام ، وقالوا : معنـاه تهب بهـا رياح شـديدة التـاثير حـارة ٠

٢ ـ ذعرت ظبـاءه متغـورات اذا ادرعـت لوامعهـــا الاكـام

---

(٢٨) آض : رجع ٠ جذلان : فرحا ٠ الكمى : الشجاع ٠
(٢٩) أعرض : أى أبدى عرضه ٠ والأعلام : الجبال ٠ الخليج : النهر ، والمراد به هنـا السـراب ٠
(٣٠) الآل : السراب ٠
(٣١) بشر بن أبى خازم من شعراء الجاهلية الفرسان ، من قبيلة بنى أسد مات قبل الاسلام ، وضعه ابن اسلام فى الطبقـة الثانية من الفحول ٠ والأبيات ديوانه ص ٤١ تحقيق د٠ عزه حسن ، وفى شرح المفضليات القسم الثالث ص ١٥٤ ٠

(اللوامع : ما يلمـع من السـراب ٠ والاكام : الجبـال الصـغار ٠ متغوزات : نصف النهار أى قائلة) ٠

٣ ـ بذ علبة براها النص حتى   بلغـت نضـارها وفـنى السـنام

(الذعلبة : السريعة ٠ النص : شدة السير ٠ النضار ة الخالص) ٠

ولئن مـر بنـا فيما تقـدم من شعر يصف الصـحراء اشـارات الى سباع الصحراء ووحشـها ، فان الشـاعر متمم بن نويرة يصـور موقفـا مؤثرا يشـير الى ما كان ينطبـع فى أخيلتهم من صـورة السباع وما استقر فى نفوسهم من رهبتهـا والحـذر منهـا ، يتخيـل الشاعر نفسـه وهو يحتضر ، وبالقـرب منـه تترصده ضبع جائعـة تنتظـر موته لتأكله ، ويتخيـل الشـاعر ما ستفعله به تلك الضـبع من جذب لحمـه وتمزيقـه حتى تاكل وتطعم صغارها منه فيقول(٣٢) :

يا لهـف مـن عـرفاء ذات فليـلة
جـاءت الى عـلى ثـلاث تخمـع

ظلـت تراصـدنى وتنظـر حـولها
ويـريبهـا رمـق وانى مطمـع

وتظـل تنشـطنى وتلحـم اجـريا
وسـط العـرين وليـس حـى يدفـع

لـو كـان سـيفى باليمـين ضـربتها
عنى ولـم اوكـل وجنـبى الأضـيع

---

(٣٢) الأبيات فى شرح المفضليات ، القسم الأول ص ١٥٩ ٠
الفلائل : قطع الشعر ، وكل ملتف فليل ٠ واحدتها فليلة ٠
تمخع : تظلع ، وكذلك الضبع عرجاء ٠

ولقد كانت الحشرات الضارة - خاصة الحيات - مصدر شر يتوجس العرب منه خيفة ، ويفزعون لرؤيته فزعا لا يقل عن فزعهم من السباع الضارية .

يصف الشاعر أبو مهدية الكلابى حية شنعاء كادت تقتله ، فلم ينس هول ما رأى وبشاعة ما أحس فقال :

قد كاد يقتلنى أصم رقش	من جب كلثم والخطوب كثير
حتى اصد الله عنى راسه	والله بالمرء المضاف بصير
خلقت لهازمه عزين وراسه	كالقرص فلطح من طحين شعير
وكان شدقيه اذا ما اقبلا	شدقا عجوز مضمضت لطهور
ويدير عينا للوقاع كانها	سمراء طاحت من نفيض برير(٣٣)

ولم يقتصر حديثهم على السباع والحيات ، بل وصفوا الغول كذلك ، ولست أدرى اذا كانت هذه الغول صورة متخيلة أوحى اليهم بها خوفهم أم هى صورة حقيقية لحيوان رأوه وصارعوه .

يقول تابط شرا :

الا من مبلغ فتيان قومى	بما لاقيت عند رحابطان
فانى قد لقيت الغول تهوى	بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها : كلانا نضو دهر	اخو سفر ، فخلى لى مكانى

---

(٣٣) الأصمعيات ص ١٢٣ ، تحقيق أحمد شاكر وهارون - بيروت - الطبعة الخامسة .

فشدت شدة نحوى فاهوى لهـا كفى بمصقول يمانى
فاضربها بلا دهش فخرت صريعا لليدين وللجران
فقالت : عد ، فقلت لها رويدا مكانك اننى ثبت الجنان
فلم أنفك متكئا لديها لأنظر مصبحا ماذا اتانى
اذا عينان فى رأس قبيح كرأس الهر مشقوق اللسان
وساقا مخدج وشواة كلب وثوب من عباء أو شنان(٣٤)

أما فقر البيئة وشدها ، وما كان يتحمله أهلها من مشقة الجوع والمسغبة ، وما كان يهددهم فيها من الهلاك بسبب ذلك فتصوره هذه الأبيات لأبى خراش الهذلى حيث يقول(٣٥) :

وانى لأثوى الجوع حتى يملنى
فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جرمى(٣٦)
واغتبق الماء القراح فانتهى
اذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم(٣٧)
أرد شجاع البطن قد تعلمينه
وأوثر غيرى من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة
وللموت خير من حياة على رغم

---

(٣٤) راجع معجم البلدان لياقوت : المجلد ٣ ص ٣١ .
(٣٥) أنظر د. شوقى ضيف : العصر الجاهلى ص ٣٧٦ .
(٣٦) أثوى الجوع : أطيل حبسه .
(٣٧) أغتبق : أشرب عشاء . المزلج : البخيل .

كما يصـور شـعر الصـعاليك اطـرافا من شظف العيش الذى كان يدفعهم الى المـوت دفعـا ، حتى جعـلوا السلب صناعتهم ، والجـرأة على اقتحام الأخطـار بضاعتهم ، يفضـلون المـوت قتـلا على الهـلاك جـوعا ، ويعـاون بعضهم بعضـا فى الغـزو والسلب ، ويحتكمـون الى قيـم خاصـة بهم ·

ها هو ذا الشنفرى أحـد الصعاليك الشـعراء يصـور لحظـة من حياتهم يبدو فيهـا تابط شرا اميـر الصعاليك مثـل الأم التى توزع الأنصبة من الطعـام على بنيهـا الجيـاع ، ويا لهـا من أم فقيـرة ضـائعة تعول أسـرة مشـردة ، يعيش أفـرادها فى خطر دائم ·

يقـول الشـنفرى :

وام عيـال قد شـهدت تقـوتهم اذا اطعمتهم أو تحت واقلت(٣٨)

تخـاف علينـا العيـل ان هى أكثـرت

ونحـن جيــاع أى آلـت تألـت(٣٩)

مصـعلكة لا يقصـر الســتر دونهــا

ولا ترتجى للبيت ان لـم تبيـت(٤٠)

لهـا وفضــة فيهــا ثـلاثون سـيحفا

اذا آنسـت أولى العدى اقشـعرت(٤١)

وتأتى العــدى بـارزا نصـف سـاقها

تجــول كعيــر العـانة المتلفت(٤٢)

---

(٣٨) المراد بام العيال : تابط شرا · أو تحت : قترت ·
(٣٩) العيل : الفقر · أى آلت تألت : أى سياسة ساست ·
(٤٠) مصعلكة : صاحبه صعاليك · لا يقصر الســتر دونهـا : لا تغطى أمـرها · (٤١) وفضة : جعبة · السيحف : السهم العريض النصل
(٤٢) العدى : الأعداء · بارزا نصف ساقها : كناية عن الجد فى الأمر · العير : حمار الوحش · العانة : جماعة الأتن الوحشية ·

ولقد كان فقـر البيئـة أحد العوامل التى جعلت هؤلاء الصعاليك يخـرجون على النظـام العـام للقبيلة ، ويحترفون السلب والغارة وسيلة لتحصـيل ما يكفيهم من الطعـام والمـال ، « وتتردد فى أشعارهم جميعـا صيحات الفقـر والجـوع ، كما تمـوج أنفسهم بثـورة عارمة على الأغنياء والأشـحاء » .

وكما كان الفقـر دافعـا كان مبررا كذلك لخـروجهم وغاراتهم ، كما يبدو من شعر عـروة بن الورد الذى يرد فيـه على زوجه التى لامته على سـلوكه ، ومخاطرته بنفسـه فى الغـزو ، ويبرر لهـا أفعـاله بأنه انما يرمى بنفسـه فى المهالك من أجل أن يوفـر لها ما يكفيها من المـال ، وليستطيـع الوفـاء بحقـوق ذوى قـرباه المحتـاجـين وغيـرهم مـن الضعفاء والفقراء . يقول عـروة(٤٣) :

اقـلى على اللـوم يـا ابنـــة منـــذر

ونامىفانلم تشتهى النوم فاسهرى(٤٤)

ذرينـى ونفـسى أم حســــان اننــى

بها قبل أن لا أملك البيــع مشترى(٤٥)

أحـاديث تبقـى والفتـى غيـر خـالد

اذا هــو أمسى هــامة تحت صـبر(٤٦)

---

(٤٣) هو عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هرم ، أحد شعراء الجاهلية وفرسانها وصعاليكها المعدودين كان يدعى (عروة الصعاليك) .

(٤٤) ابنة منذر : امرأته سلمى سباها من كنانة وأعتقها وتزوجها ، وأم حسان كنيتها .

(٤٥) البيع : بمعنى الشراء هنا يقول : ذرينى أشترى المجد قبـل أن لا أملك ذلك .

(٤٦) الهامة : روح القتيل التي تطالب بالثأر في زعم العرب .

تجاوب احجار الكناس وتشتكى
الى كل معروف تراه ومنكر(٤٧)

ذرينى أطوف فى البلاد لعلنى
أخليك أو أغنيك عن سوء محضر(٤٨)

فان فاز سهم للمنية لم أكن
جزوعا وهل عن ذاك من متأخر

وان فاز سهمى كفكم عن مقاعد
لكم خلف أدبار البيوت ومنظر

تقول لك الويلات هل أنت تارك
ضبوءا برجل تارة وبمنسر(٤٩)

ومستثبت فى مالك العام اننى
أراك على أقتاد صرماء مذكر(٥٠)

فجوع بها للصالحين مزلة
مخوف رداها أن تصيبك فاحذر(٥١)

---

(٤٧) الكناس : موضع .
(٤٨) التخلية : الترك والمراد هنا فراقها بقتله ، فهو اذا قتل تزوجت غيره ، واذا عاد أغناها .
(٤٩) الضبوء : اللصوق بالأرض والاستتار للصيد . الرجل : الرجالة . المنسر : الجماعة من الخيل .
(٥٠) الأقتاد : خشبات الرحل . الصرماء : قليلة اللبن . المذكر : التى تلد الذكور وهو أفظع ما يكون من نتاج العرب وأبغضه اليهم . تقول : هل أنت مستثبت هذا العام فى مالك ؟ فانى أخاف عليك الا ترجع ، فانك لا تزال تغير فكيف تراك تسلم ، وجعل من هذه الناقة للداهية .
(٥١) فجوع : تفجع الناس وهو من صفة الصرماء . الصالحون : ذوو المعروف . مزلة : تزل بأهلها .

أبى الخفض من يغشاك من ذى قـرابة

ومن كل سـوداء المعـاصم تعترى(٥٢)

ومسـتهنىء زيـد أبــوه فـلا أرى

له مدفعا ، فاقنى حياءك واصبرى(٥٣)

وفى أبيـات عـروة السـابقة اشـارات عديدة الى المـوت ـ اقـرأ الأبيـات الستة الأولى ـ وفيهـا كذلك اشـارات الى الفقـر الذى يرجـو الشاعر دفعه والتخلص منه بالترحل والغـزو .

وقد أعلن الشـاعر أنه يغـامر من أجـل أن يدرك الغنى الذى يكفيه وزوجـه ذل السـؤال والحـاجة ، ويعينه على مسـاعدة أقاربه الفقـراء فان لم يدرك تلك الغـاية فالموت أفضـل من حياة الذل والهوان .

هكذا كانت الصحراء بطبيعتها الرهيبـة ومناخها القاسى ، ووحوشها الضـارية ، وحشراتها الفتـاكة ، وفقـرها المهلك عاملا قـويا ضاعف من احسـاس الشـاعر الجاهلى بالموت .

* * *

---

(٥٢) الخفض : الدعة ولين العيش . سوداء المعاصم : المرأة التى أجهدها الجدب والهزل وشدة الجوع .

(٥٣) المستهنىء : طالب الهناء وهو العطاء . زيد أبوه : رجل من قومه يجتمع معه فى زيد جده . راجـع الأصمعيات ص ٤٣ ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ ط. بيروت .

الفصل الثانى

الحـــروب

الحـروب هى مواسم حصـاد الأرواح ، فيهـا تطحن رحى المنيـة عظـام الرجال ، وتغتـال نفوس الأبطـال ، وهى مواسم شـؤم تخلف وراءها ضياع اليتم وألم الفقد وأحقـاد الثـأر ٠

وقـد يكون للحـرب غـاية وهدف ، فتكتسب بذلك مبررا مقنعـا يهون الموت فيهـا على ذوى الهمم العـالية ، كما هو الشـأن فى حـروب الجهاد من أجـل اعـلاء كلمة الحـق والدفاع عن حـوزة الدين ٠

أما اذا كانت الحـرب بلا غـاية شريفة تنتهى اليها ، أو هدف سـام قامت من أجله فبئست هى وبئس مشعلوها ٠

ولقد كانت أكثر حروب العرب فى الجاهلية من هذا الصنف الكريه ٠ فأشهر الحـروب وأكبرها قامت لأسـباب تافهـة لا تستوجب اراقة الدم وازهـاق الأرواح ، فحـرب البسـوس التى تعـددت أيامها ، وكثـرت ضحاياها ، وامتـد أجلهـا أربعـين سنة بين قبـائل بكـر وقبـائل تغلب كان سببها أن كليبا سيد تغلب قتـل ناقة للبسـوس خـالة جسـاس بن مرة أحـد سـادة بكـر وفرسـانها ، فاسـتثارت خالتـه حميتـه فذهب الى كليب وقتـله ، ولم تـرض قبيـلة بكـر بالفـدية ، فاشتعلت الحـرب الضروس التى شهدتها عدة أجيال(١) ٠

---

(١) راجع العقد الفريد جـ ٥ ص ٢١٣ ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ٠

أما حــرب داحس والغبــراء التى تطــاير شــررها وحمى أوارها بين عبس وذبيــان فقد كانت بسبب رهــان على ســباق بين فــرسين هما داحس والغبــراء(٢) ٠

والأمــر فى نظر العقــلاء لا يستحق نشوب حرب ، لكنها العقليــة الجاهلية البدوية التى لم يهذبها دين فاستجابت لاغــواء الشيطان واتبعت نداء الحمق والهــوى فأشعلت الحرب الضروس لأمر تافه ٠

وقد كان لبعض الحــروب والغــارات مبرر اقتصــادى كالمنازعة على بئر مــاء أو المنــافسة على مكان معشب ، وقــريب من هذا غــارات السلب وأحداث قطــع الطــريق التى كانت تراق فيهــا الدماء فــوق رمــال شبه جــزيرة العــرب ٠

وليس هناك أمة وعى التاريخ أنها اقتتلت مثل العرب الجــاهليين فلقد تعددت حــروبهم وعرفت بأيام العــرب ، وســطرت فيهــا كتب ، وأفردت لها الأبواب فى كتب التاريخ وكتب الأدب ٠

وتبلــغ أيام العــرب وحــروبهم من الكثرة مبلغــا كبيرا حتى انه ليقـــال :

« ان أبا عبيدة المتوفى سنة ٢١١ هـ صنف فى ألف يوم ومائتين منها كتابا اعتمد عليه من جاءوا بعده »(٣) ٠

ولقد وسمت هذه الأيام الكثيرة فى ذاكرة التاريخ بعلامات مختلفة ، فقد يسمى اليوم باسم المكان الذى حدثت فيــه الحــرب كبئر مــاء أو جبل أو غير ذلك ٠

---

(٢) راجع العقد الفريد جـ ٥ ص ١٥٠ ٠
(٣) د٠ شوقى ضيف : العصر الجاهلى ص ٦٤ ٠

وقد تسمى الحرب باسم السبب الذى أحدثها ، أو باسم حادثة مشهورة وقعت فيها ٠٠ وهكذا ٠٠

وتشغل الحروب حيزا كبيرا فى ديوان الشعر الجاهلى ، بل ان هناك أغراضا عديدة فى الشعر نشأت من وحى الحرب ، فشعر الحرب والخيل ، وشعر الفخر والحماسة ، وكثير من شعر الرثاء ، يدور حول الحرب واصفا أدواتها أو حاثا ومحرضا عليها ، أو راصدا لنتائجها من ظفر وخيبة ، أو مسجلا لأحداثها من كر وفر وثبات وادبار وقتل وأسر وغير ذلك ، أو باكيا أبطالها الذين قتلوا ٠

والذى يقرأ الشعر الجاهلى فى الحماسة والفخر يظن أن القوم استهانوا بالموت الى حد كبير ، وأن احساسهم به تبلد ، وأن مزاجهم الف الدم والقتل ، فاستساغ كل ذلك ولم يستقبحه ٠

بيد أن شعرهم فى الرثاء يعرى ما خفى من نفوسهم فى هذا الجانب ، ويظهر جزعهم من الحرب ، ويجلى احساسهم بالموت وكراهية ما هم فيه من اقتتال ، كما تظهر تلك الأمور أيضا فى أشعار بعض حكمائهم الذين عرفوا برجاحة العقل وسمو النفس ، على أن الحقيقة التى لا تقبل الجدل هى أن الحرب فى واقع الجاهليين أوشكت أن تكون عادة ، فهم بين حرب يخوضونها أو حرب يستعدون لها ، بين اغارة أو دفع لغارة ، بين كر وفر دائمين ٠

يصور ذلك تلك الأبيات لدريد بن الصمة (٤) :

وانا للحم السيف غير نكيرة ... ونلحمه حينا وليس بذى نكر
يغار علينا واترين فيشتفى ... بنا ان اصبنا أو نغير على وتر

---

(٥) انظر : العصر الجاهلى ، د٠ شوقى ضيف ص ٦٤ ٠

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا ... فما ينقضى الا ونحن على شطر

ولست أنكر أن نزعة الفخر هى الغالبة على تلك الأبيات ، لكنى أحس وراء هذه النزعة شيئا من الضيق بهذه الحياة ، وبعضا من الكراهية لها ، فالشاعر وقبيلته طعام للسيوف يغار عليهم ويقتل منهم ، وقد انقسم الدهر فى حياتهم شطرين فى كليهما قتل ، يغار عليهم أو يغيرون على غيرهم .

وما اتعس حياة لا تنفك عن الصراع الدموى ؛ ولا تزايلها الحروب ويعيش أصحابها يتجرعون كؤوس الموت باستمرار ، ويجترون مرارة الحقد والرغبة فى الثأر والانتقام .

ولم تقتصر الحروب على قبائل دون غيرها ، فكلهم ذاق مرارتها ، وكلهم أغار وأغير عليه ، بل ان الحرب كانت تشتعل ـ أحيانا ـ بين الجيران وذوى القربى كما يبدو من قول القطامى (٥) :

اغرن من الضباب على حلول ... وضبة انه من حان حانا

واحيانا على بكر اخينا ... اذا ما لم نجد الا اخانا

وهم فى وصفهم للحرب ، وتصويرهم لما نزل بالأعداء من قتل وأسر وطرد ، يقعون على صور غاية فى القسوة حتى ليظن المرء أن قلوبهم أشربت القتل ، فهم يجدون متعتهم فى وصف المصارع والدماء واظهار التشفى بما ألحقوه بالأعداء ، وينعتون الخيل والفرسان بما يدل على الغلظة ، ويفصلون فى ذكر آثار الهزيمة ومرارتها ، وهذه أبيات للشاعر بشر بن أبى خازم تتضمن تلك المعانى ، يقول بشر (٦) :

---

(٦) راجع الأبيات وشرحها فى شرح المفضليات للتبريزى ، القسم الثالث ص ١١٩٧ .

سائل تميما فى الحروب وعامرا

وهل المجرب مثل من لم يعلم

غضبت تميم أن تقتل عامر

يوم النسار فاعقبوا بالصيلم

أى كانت الصيلم عاقبة أمرهم ٠ والصيلم : الداهية ٠ وهذا تهكم ، والصيلم فيعل من الصلم ، وهو القطع ، أى المصطلمة لجماعتهم ٠

كنا اذا نعروا لحرب نعرة

نشفى صداعهم براس صلدم

نعروا : هاجوا واجتمعوا ٠ والنعرة : أبهة تاخذ فى الرءوس والأنوف ، ومعنى نشفى صداعهم : كناية عن مداواة دائهم وازالة الكبر من رءوسهم ٠ والرأس : الرئيس ٠ وصلدم : شديد ٠

نعلو القوانس بالسيوف فنعتزى

والخيل مشعلة النحور من الدم

أى ملطخة الصدور بالدماء السائلة عليها ٠ وقيل : انما أراد كأنها أشعلت فيها نار لتأثير الطعن فيها ودفعها بالدماء السائلة منها ٠

يخرجن من خلل الغبار عوابسا

خبب السباع بكل أكلف ضيغم

أى بكل رجل كأنه أسد أكلف ضيغم ٠ والضغم : العض ٠ والعوابس : الكريهات المنظر ٠

من كل مسترخى النجاد منازل

يسمو الى الأقران غير مقلم

منـــازل : ينازل اقرانه ، ولا يتبخل نفسـه بملاقاة من لا يؤبه له ·

وجعله غير مقلم لكونه تام السـلاح ·

ففضـض جمعهـــم وافـلت حـاجب
تحـت العجـــاجة فى الغبـــار الأقتــم

وراوا عقـــابهم المـــدلة أصـــبحت
نبـذت بافضـــح ذى مخـــالب جهضـم

كانت راية بنى تميم على صـورة العقـاب وراية بنى أسـد قبيـلة بشر على صـورة الأسـد ، والمدلة : التى تدل على الأقـران · والمعـنى : قـوبلت عـلامتهم العقـابية بعـلامتنا الأسـدية ، والفضـحة : شهبـة تعـلوها حمـرة ·

اقصـــدن حجـــرا قبـل ذلـك والقنـــا
شـــرع اليـــه وقـد أكـب على الفـــم

يعنى حجـر بن الحـارث ـ الملك ابن عمـرو ـ قتلتـه بنو أسد ، وهو أبو امـرىء القيس وقوله : والقنـا شرع : أى قد تهيأت للطعن ، وقد اكب لوجهه : أى سقط ·

ينـوى محـــاولة القيـــام وقـد مضـت
فيـــه مخـــارص كل لـدن لهـــذم

المخـارص : الأسنة · واللهذم : الحديد · أى ينوى أن يقوم فلا يقدر وقد مضت فيـه الأسـنة ·

وبنـــو نميـــر قـد لقينـــا منهـم
خيـــلا تضـــب لثـــاتها للمغنـــم

تضب : تسيل · و (نمير) ابن عامر بن صعصعة : اللثـات : جمع

لثة وهى اللحمة المركبة فيها الأسنان . يقال : فلان تضب لثته على وتبض ، اذا كان حريصا عليه .

فدهمنهم دهما بكل طمرة
ومقطع حلق الرحالة مرجم

لحقنهم بكل فرس وثابة لنشاطها ، سريعة فى مرها ، يقطع الحزام لعظم جوفها .

ولقد خبطن بنى كلاب خبطة
الصقنهم بدعائم المتخيم

يريد دسن بنى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . والخبط : الضرب ولذلك قيل : هو يخبط خبط العشواء . ومعنى الصقنهم الجانهم الى الالتصاق بدعائم البيوت المضروبة . يريد : رددنهم أسوأ الرد فى متخيمهم .

وصلقن كعبا قبل ذلك صلقة
بقنا تعاوره الأكف مقوم

يريد كعب بن ربيعة بن عامر . والصلق : رفع الصوت ، ومثله السلق ، فيقول : أوقعنا بهم وقعة لها فى الناس صوت وذكر .

وقيل : الصلق : الضرب على الشىء اليابس ، وقوله : بقنا تعاوره : يريد فعلنا تلك الصلقة من قبل بقنا تداوله الأيدى لاطرادها واستوائها .

حتى سقينا الناس كاسا مرة
مكروهة حسواتها كالعلقم

العلقم : شجر مر . أ. هـ .

وواضح أن الشاعر يعدد القبائل التي اصطلت بالحروب وذاقت

مرارة الهزيمة على أيدى فرسان بنى أسد ، وهو يصف المصارع التى وردها رؤساء القبائل المهزومة ، ويشير الى صفات الخيل ونعوت الفرسان ، ويشير الى أثر الهزيمة فى القوم ويشبهها بالكأس المرة المشبهة للعلقم ٠

وعلى هذا النحو يتحدث الأعشى عما أنزلته قبيلته بالقبائل الأخرى من نكال وقتل ، وأن ذلك الأمر مشهور عنهم بين الناس ، فيقول :

سائل بنى أسد عنا فقد علموا
ان سوف ياتيك من ابنائنا شكل
واسأل قشير أو عبد الله كلهم
واسأل ربيعة عنا كيف نفتعل
انا نقاتلهم حتى نقتلهم عند اللقاء وهم جاروا وهم جهلوا
لئن منيت بنا عن غب معركة لم تلفنا من دماء القوم ننتفل
قد تخضب العير من مكنون فائله
وقد يشيط على ارماحنا البطل
نحن الفوارس يوم العين ضاحية
جنبى فطيمة لا ميل ولا عزل
قالوا الركوب فقلنا تلك عادتنا
أو تنزلون فانا معشر نزل(٧)

---

(٧) د٠ شوقى ضيف : العصر الجاهلى ص ٣٠٢ ٠ شكل : أزواج مختلفة ، يريد خبرا بعد خبر ٠ نفتعل : نفعل العظائم ٠ غب : عقب ٠ يقصد أنهم لا يتعبون من لقاء الأعداء ٠ العير : حمار الوحش استعاره للفرس ٠ الفائل : القناة الدموية كالشريان ، يشيط : يهلك ٠ تفزلون : تضربون بالسيوف ٠

والأبيات فى مجملها تدور حول المعانى التى دارت حولها أبيات بشر بن أبى خازم لكن الجدير بالملاحظة أن قبيلة بنى أسد التى فاخر بها بشر وصورها منتصرة تذيق القبائل مرارة الهزيمة ، هذه القبيلة (بنو أسد) ورد ذكرها فى صدر أبيات الأعشى على أنها تعرف شجاعة القبيلة التى ينتمى اليها الأعشى ، وما ذلك الا عن تجربة ، فهى فى أبيات الأعشى ممن هزموا وذاقوا النكال والقتل ، وذلك يدل على أن كل القبائل ذاقوا مرارة الحرب مهزومين كما فاخروا بها منتصرين ٠

كما يصور مهلهل بن ربيعة فعله ببجير بن الحرث بن عباد ابن مرة ، وهمام بن مرة ، وكيف تركهما وغيرهما من القتلى غارقين فى دمائهم تطيف على أشلائهم النسور ، ويصف ما نزل بالوخوم من بنى عامر بن ذهل على يديه من سوء يوم عنيزة ، فيقول :

فانى تركت بوار دات ... بجيرا فى دم مثل العبير
وهمام بن مرة قد تركنا ... عليه القشعمان من النسور
وصبحنا الوخوم بيوم سوء ... يدافعن الأسنة بالنحور
كأنا غدوة وبنى أبينا ... بجوف عنيزة رحيا مدير
فلولا الريح أسمع أهل حجر ... صليل البيض تقرع بالذكور(٨)

---

(٨) المهلهل : امرؤ القيس بن ربيعة بن الحارث سيد تغلب وفارسها وشاعرها القديم ٠
واردات : موضع كان فيه يوم بين بكر وتغلب ٠ القشعم : المسن من الرجال والنسور والرخم وقد أراد بالمثنى الجمع ٠ الوخوم : من بنى عامر بن ذهل ٠ عنيزة : موضع ٠ وحجر : مدينة باليمامة ٠ وأراد بالذكور : أجود السيوف وأيبسها وأشدها ٠ وقد أفرط فى المبالغة ، اذ جعل صليل السيوف يسمع باليمامة لولا الريح وقد كانت حربهم بالجزيرة وبين الموضعين عشرة أيام ٠

وتجد مثـل هذه الصـور فى شعر امـرىء القيس وعنترة بن شـداد وعمـرو بن كلثوم وغيرهم .

وقد يدل ذلك على استهانة القـوم بالمـوت وجـراتهم عليه ، لكنه يدل فى الوقت نفسـه على ان المـوت كان يملأ حياتهم ، وان صـورته لم تفـارق اخيلتهم ، وهم يمجدون الحـرب فى حـالة النصر والظفر ، وعند الهـزيمة يجتـرون الاحـزان .

وفى فطـرة النـاس التى فطـرهم الله عليهـا كراهية الحرب وحب السـلام والتعلق بالحيـاة ، ولا ادل على ذلك من قول الله عز وجل - فى معـرض حث المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله :

« كتب عليـكم القتـال وهـو كـره لـكم وعسى ان تكـرهوا شـيئا وهـو خيـر لـكم وعسى ان تحبـوا شـيئا وهو شـر لـكم والله يعـلم وانتم لا تعلمـون » .

ويمثـل زهير بن ابي سلمي صـوت النذير العـاقل الذى يعو قومه لنبـذ الحـرب والتعـايش فى سـلام ، وتطالعنـا فى شعره صور كريهة للحـرب ، تنفـر النـاس منهـا ، وتبصرهم بشؤمها ووبالها ، وتحذرهم عواقبها الوخيمـة ، فيصـور الحـرب أسدا ضـاريا ، ونارا مشتعـلة ، ورحى تطحـن ، ويصـورها ولـودا لاجيـال الحقـد والشـؤم والثـار والانتقـام ، وهى لذلك لا يجنى النـاس منهـا الا الخسـران والبوار . يقـول زهيـر(٩) :

---

(٩) راجع شرح القصائد المشهورات لابن النحاس ص ١١٢ .

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر اذا اضربتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح كشافا ثم تحمل فتتئم

فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم
كاحمر عاد ثم ترضع فتفطم

فتغلل لكم ما لا تغل لاهلها
قرى بالعراق من قفيز ودرهم

ولقد اشار الشاعر شعبة بن قمير الى بعض العوامل التى سبق الحديث عنها ، والتى كانت تقوى احساس الشاعر الجاهلى بالموت فى قوله :

هلك الذين تحملوا من عندنا
بالقتل والحيات والأوصاب

وبقيت بعدهم فادركنى البلى
حتى للأياما اسيغ شرابى(١٠)

* * *

(١٠) هو شعبة بن قمير الطهوى ـ جاهلي أدرك الاسلام ـ شعر بني تميم ص ٤٣٥ .

الفصل الثالث

الرحلة

من المعروف أن حياة العرب كانت تعتمد على الترحل والانتقال من مكان الى آخر تتبعا لمساقط الغيث ومنابت الكلأ .

والرحلة فى حقيقتها وداع وترك ، ينتقل الحى فيودع جيرانه ويترك مكانه ، ويشط المزار بين المنزل القديم والمنزل الجديد وبين الرحلة والموت شبه من تلك الأوجه .

وبينهما كذلك شبه من جهة العاقبة ، فالموت يعقبه التغير والفناء ، وكذلك الرحلة . فالقوم بعد أن يتركوا منازلهم تغيرها الرياح وتعبث بها ، وتسكنها من بعد أهلها أسراب الوحش وحيوان الصحراء ، ولهذا نرى كل الشعراء الجاهليين يقفون على آثار الديار ، يبكون ويستبكون ، ويسترجعون الماضى والذكرى ، والذى يستعرض بكاء الأطلال يلاحظ أن الشعراء فى هذا الغرض يستخدمون الألفاظ الدالة على الفناء والبلى والتغير والزوال ، ويلاحظ أيضا أن الشعراء فى وصفهم للديار فى ماضيها والتعجب من مصيرها الذى آلت اليه يلمون بمعان شبيهة بمعانى الرثاء ، كما يشيرون الى فعل الزمان ويد الدهر ، والى سوابقه فى التغيير والافناء .

كل ذلك يدل على أن الترحل يذكر بالموت ويقوى الاحساس به وما يزال الناس الى يومنا هذا يبكون عندما يودع بعضهم بعضا عند رحلة أو سفر لما ارتبط فى الأذهان وفى الوجدان من علائق بين الموت والارتحال ، ففي كلا الأمرين فراق واغتراب .

يقول الدكتور نصرت عبد الرحمن :

وفى نسيج الوجود خيطان ، خيط الحياة وخيط الموت ، والحياة والموت سداة الوجود ولحمته ، وفى الطلل حاول الشعراء الجاهليون أن يظهروا الخيطين معاً ، فظهر القلق من أمر الموت ، أو من الفناء ، فقد رحل الانسان الذى نصب الأثافى وطها الطعام ، ورحل ساكنو البيت ... ومن القلق يتولد البكاء ، ولذا بدا البكاء على الطلل بكاء انسان قلق يحس بعمق أن الفناء يتربص بالانسان »(١) .

وقد كان العرب ـ لذلك ـ يكرهون الترحل لما فيه من فراق للأحبة ويتشاءمون به على نحو ما يقول النابغة :

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغداف الأسود

لا مرحبا بغد ولا أهلا به ان كان تفريق الأحبة فى غد

حان الرحيل ، ولم تودع مهددا

والصبح والامساء منها موعدى(٢)

أما ألفاظ الفناء ومعانى الحزن فى وصف ديار الأحبة الذين ارتحلوا فهى فى الشعر الجاهلى أكثره ، وحسبنا أن نشير الى بعض الأمثلة من المعلقات .

فى معلقة امرىء القيس أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى بدأ الشاعر ببكاء الديار ووصف ما لحقها من تغير بعد رحيل أهلها عنها ، ووصف حزنه وأساه على فراق الأحبة ، فقال :

---

(١) أنظر الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى فى ضوء النقد الحديث ، د. نصرت عبد الرحمن ص ١٦٢ ، مكتبة الأقصى ـ عمان ١٩٧٦ .
(٢) ديوان النابغة : ص ١٠٥ .

قفــا نبـك مــن ذكـرى حبيـب ومنزل
بسـقط الـلوى بين الدخـول فحــومل

فتوضــح فالمقــراة لــم يعـف رســمها
لمــا نســـجتها مــن جنـــوب وشــمال

تـــرى بعـــر الآرام فى عــرصـــــاتها
وقيعـــــانها كـــأنه حــب فلفــــــل

كــأنى غـــداة البــين يــوم تحمــــلوا
لــدى ســمرات الحى ناقف حنظـــــل

وقـــــوفاً بهـــا صـحبى على مطيـهم
يقـــولون لا تهـــلك أسى وتجمـل(٣)

وكما وقف امرؤ القيس وبكى وقف طرفة بن العبد على أطلال خولة واستبد به الأسى فنصحه رفاقه بالتجلد والصبر ، يقول طرفة :

لخـــــولة أطـــلال ببـرقـــة ثهمــــد
تـلوح كبـاقى الوشـم فى ظـــاهر اليـد

وقـــوفاً بهــا صـحبى على مطيهـم
يقـــولون لا تهـــلك أسى وتجـــلد(٤)

---

(٣) شرح المعلقات السبع : ص ٤ . سقط اللوى ة منقطع الرمل المعـوج . والدخول ، وحومل ، وتوضح ، والمقـراة كلها مواضع . لم يعف رسمها : لم ينمح أثرها لهبـوب الرياح عليها من جهتى الجنوب والشمال فاذا غطتها احداهما بالتراب كشفت الأخرى التراب عنها . والآرام : الظباء . وعرصات الدار : ساحاتها . وسمرات : جمـع سمرة بضم الميم من شجر الطلح . ناقف الحنظل : الذى يشـقه . يريد : وقفت بعد رحيلهم فى حيرة وقفـة جانى الحنظـلة يشقها بظفـره.

(٤) شرح المعلقات السبع : ص ٣٥ .

أما زهيـر بن أبى سلمى فيصف الديار بعد عشرين سـنة من رحيـل أهلهـا ، ومن الطبيعى بعد هذه المـدة الطويلة أن يصعب عليـه التعـرف على الديار ، وأن يعـرفها بعد لأى ، فقد تغيرت معـالمها ، ولم يبق منها الا آثـار باهتـة كالوشـم فى المعصـم ، واتخـذ البقـر الوحشى منهـا مسـكنا ، ولمـا تعـرف عليهـا حيـاها وفاء بحقها وحق من كان يسكنها . يقـول زهيـر :

آمـن أم أوفى دمنـــة لم تكلم بحـومـــانة الـــدراج فالمتثـلم

ودار لهـا بالرقمتـــين كانهـــا مراجيـع وشـم فى نواشر معصـم

بهـا العـــين والآرام بمشـــين خلفـــة

وأطـــلاؤها ينهضـن مـن كـل مجثـم

وقفـت بهـا مـن بعـد عشـرين حجـة

فـلأيا عـــرفت الـدار بعـــد تـــوهم

أثـافى سفعا فى معرس مرجل ونـؤيا كجـذم الحـوص لم يتثـلم

فلمـــا عـــرفت الـــدار قلـت لربعهـــا

الا انعم صـباحا أيهـا الربــع واسلم(٥)

ووقف النابغـة فى ديار ميـة التى هجـرها أهلهـا ، فبدت خالية الا مـن آثار قليـلة ، وتراكم فى أركانهـا التراب ، ودب فى أرجائهـا

---

(٥) أنظر شرح المعلقات السبع ص ٥٨ . الدمنة : ما اسود من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما . حومانة الدراج والمتثلم : موضعان ، والرقمتان موضعان . وقوله دار لها . يريد : داران لها بهما فاكتفى بالواحد عن التثنية . العين : البقر الواسعات العيون . والآرام : جمع رئم وهو الظبى الخالص البياض . والأطلاء : جمع الطلا : وهو ولد الظبية والبقرة الوحشية . الآثافى : حجارة توضع عليها القدر . سفعا : سودا . المعرس : المنزل . المرجل : القدر . النؤى : نهير حول البيت ليجرى فيه المـاء .

الخراب وتذكر الشاعر ما حدث للقمان بن عاد الذى عمر طويلا ، ثم مات ، وأيقن أن رجوع الماضى مستحيل . قال النابغة :

يا دار مية بالعلياء فالسند	اقوت وطال عليها سالف الأبد
وقفت بها أصيلانا أسائلها	عيت جوابا ، وما بالربع من أحد
الا الأوارى لأيا ما أبينها	والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد
ردت عليه أقاصيه ولبده	ضرب الوليدة بالمسحاة فى الثأد
خلت سبيل اتى كان يحبسه	ورفعته الى السجفين ، فالنضد
امست خلاء وامسى أهلها احتملوا	أخنى عليها الذى أخنى على لبد(٦)

هكذا كانت الرحلة وما ينتج عنها من فراق الأحبة وبعد المنازل وخراب الديار عاملا من العوامل التى قوت احساس الشاعر الجاهلى بالموت .

ولئن كانت تلك العوامل ناشئة من الواقع الجاهلى ، فان ثمت عاملا آخر ضاعف من احساس الشاعر الجاهلى بالموت ، وهذا

---

(٦) ديوان النابغة ص ٩٠ . العلياء : المكان المرتفع . السند : السفح موقع بين القمة والوادى . أقوت : هجرها أهلها . أصيلانا : عند الأصيل . عيت جوابا : عجزت عن الجواب . الأوارى : مفردها الآرى ، وهو ما تشد به الدابة . اللأى : الشدة . النؤى ما يحفر حول البيت أو الخيمة ليجتمع فيه ماء المطر . والمظلومة الجلد : الأرض الصلبة الشاقة . لبده : تراكم التراب عليه . الأتى : المياه الجارفة . السجفان : الستاران . والنضد : المتاع .
أخنى عليها : غير أحوالها وبدلها . لبد : يقصد به نسرا يقال انه كان للقمان بن عاد عاش مديدا .

العـامل لم يكن منشـؤه الواقـع والبيئـة ، بل كان راجعـا الى نفس الانســان الجاهلى ، التى لم تعـرف اليقين بالآخـرة ، ولم تؤمن بالبعث والحيـاة بعد الموت ، واعتقدت أن المـوت نهاية كل شىء ، وأن الحيـاة الدنيـا هى الفصـل الأول والأخيـر فى قصـة الوجود ، وقد كانت تلك العقيدة شـائعة بينهم لافتقـادهم الدين الصـحيح على نحو ما سـأبينه فى الفصـل التـالى .

* * *

الفصل الرابع

افتقادهم الدين الصحيح

لا جرم أن الايمان بالله واليوم الآخر ، واستقبال رسالات السماء بالتصديق الجازم واليقين الثابت يحل كثيرا من المشكلات التى يعجز عقل الانسان عن الوصول فيها الى الحق الصريح ٠

ان العقل البشرى قد يعجز عن تصور امكان البعث بعد الموت والحياة الآخرة اذا عمل هذا العقل بمعزل عن هدى السماء الذى تنزل على الرسل ، ولهذا ضل كثير من الفلاسفة وتاهوا ، وتشعبت بهم السبل وهم يبحثون بعقولهم فى القضايا التى أسموها (ما وراء الطبيعة) والتى تعرف فى الاسلام بالغيبيات ٠

ان التدين الصحيح المتضمن الايمان القوى بالله وباليوم الآخر ، يضىء قلب الانسان وعقله ، ويشبع تطلعات روحه ، ويغرس فى نفسه غراس الأمل فى رحمة الله ، ويجعل نفسه مطمئنة راضية ، تعمل الخير وتحبه رجاء مرضاة الله وثوابه ، وتحذر الشر وتكرهه خوفا من الله وعقابه ٠

عندئذ يصبح للحياة مغزى وهدف ، ويكتسب الموت مبررا قويا مقنعا ومرضيا للعقل الذى لا تنتهى تساؤلاته ، فيكون نهاية لمرحلة وبداية لأخرى ٠

الموت عند المتدين بالدين الصحيح أمر لابد منه واقعا وعقلا ، والآخرة عنده أمر لابد منه واقعا وعقلا كذلك ٠ اذ كيف تكون الحياة الدنيا هى كل الغاية من الخلق ؟ وكيف يتساوى الخير والشر ؟ ٠

وهل يرضى العقل ، أو يكون من العـدل أن يصـبح الدفن فى التراب هو المصـير الذى ليس بعـده رجعـة ولا حسـاب ولا جـزاء على اختلاف ما يقـع فى دنيـا النـاس من أعمـال ، وعلى تفـاوت ما يجنيه أصحابها من نتـائج غالبـا ما تكون غير منضبطة بموازين الحق والعدل ؟ ٠

والذين يعرضون عن هدى السماء ، ولا يدينون دين الحق يتخبطون فى الظلمات ، وتسـير الأمـور فى نظرهم بغير منطق ودون غـاية ، وتبدو الحيـاة فى تصـورهم عبثا لا فائدة منـه ولا هدف له ، ويظنون أن الموت حدث لا مبرر له ولا حـكمة من ورائه ، وأن البعث أمر مستحيل لا يمكن حـدوثه ٠٠٠ وهكذا كان أكثـر العـرب فى الجاهلية ، وهكذا يكون كل من يفتقد الدين الصحيح فى كل مكان وزمان ٠

لقد كان العـرب ـ فى جملتهم ـ وثنيين ، يعبدون الأصنام من دون الله ، أو يزعمون أنها شريك له ٠

كما كانوا ـ فى جملتهم ـ بين شـاك فى البعث ومنكر له ، وأقول : « فى جملتهم » ليصـح لنـا أن نستثنى من هـذا الحـكم قليـلا منهم تمسكوا ببقـايا من دين ابراهيم ـ عليه السـلام ـ أو عرفوا شيئا مما صح من معتقدات أهل الكتاب اليهـود والنصـارى فآمنـوا بوحدانية الله عـز وجل وتعبـدوه بما استطاعوا من الأعمال رجاء ثوابه وخوفا من عقـابه فى الدار الآخـرة ٠

أما أكثر العـرب فكانوا مشركين بالله ، لا يصـدقون بيوم الدين ، وبسبب ذلك غامت رؤيتهم ، وتخبطوا فى شعاب الحيـاة ، فلم يعرفوا معـروفا ولم ينكروا منكرا فى كثيـر من الأمـور ، وأملت عليهم بيئتهم قوانينهـا التى حـكمت إنمـاط سـلوكهم ، فاتخـذوا السلب والنهب ، والغـارة والحـرب سبلا لكسب الـرزق ، ونظـروا الى المـوت على أنه

النهاية التى ليس بعدها حياة ، ولم يعرفوا الحكمة منه واعتقدوا أنه حدث لا تقدير وراءه ولا تدبير ، على الرغم من تيقنهم أنه مصير لا فكاك منه لأحد .

وليس دقيقا ما ذهب اليه الدكتور عمر فروخ ، اذ يقول :

« البدوى موحد ، ولكنه قليل الاحتفال بالعبادات وبالدين كله اذا كان آمنا على نفسه »(١) .

وليس صحيحا ما ذهب اليه فى قوله :

« أما الجامع الروحى الذى كان فى جميع شبه الجزيرة العربية يجمع بين أفراد الأسرة ويجمع أيضا بين أفراد القبيلة فكان البر . وقد قام البر للجاهلى فى البدو والحضر مقام الدين والرابطة الاجتماعية والأخلاق الشخصية »(٢) .

واستشهد الدكتور فروخ بورود كلمة (البر) فى الشعر الجاهلى لاثبات ما ذهب اليه ، وأورد قول النابغة فى حديث الرجل والحية :

فلما وقاها الله ضربة فأسه

وللبر عين لا تغمض ناظره(٣)

وأورد قول عمرو بن كلثوم :

نجذ رءوسهم من غير بر . . . . . . (٤)

---

(١) تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ٦١ .
(٢) المرجع السابق : ص ٦٤ .
(٣) أنظر ديوان النابغة ص ١٢١ ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .
(٤) تمام البيت : فما يدرون ماذا يتقونا
وهو من معلقته : راجع شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٠٢ .

كما استند الى موقف طرفة من اقاربه الذين ظلموه وأكلوا حقه في الميراث ، فلم يسىء اليهم رعاية لحقوق القربى ، وذلك من البر .

وما استشهد به الدكتور عمر فروخ لا ينهض دليلا لاثبات البر للجاهليين وادعاء أن هذا البر كان يقوم عندهم مقام الدين والأخلاق ، لأن المعول على ما يغلب على الانسان من سلوك ، وما يشيع في البيئة من قيم وأخلاق ، وورود كلمة البر في بعض الأشعار ، وموقف طرفة من اقاربه لا يكفيان لاثبات البر والأخلاق الكريمة لمجتمع بأسره ، مع ملاحظة اننا لا ننفى كل مكرمة عن الجاهليين ، فقد كان عندهم بعض المكارم التى اقرهم عليها الاسلام ، فكل انسان - مهما كان الأمر - لا يخلو من خير ، وكل بيئة لا يمكن أن تكون شرا محضا ، لكن العبرة بالكثير الغالب - كما أسلفت - .

ونحن نجد مئات الأحداث والشواهد التى تدل على أن الشر وليس الخير هو الذي كان يغلب علي سلوك الجاهليين أفرادا وجماعات ، ومرجع ذلك الى الظروف الصعبة التى كانوا يعيشونها فى بيئة الصحراء ، والي عدم التزامهم بدين صحيح يكبح جماح الغرائز والشهوات ، ويحول بينهم وبين ارتكاب الموبقات ، فضلا عن انكارهم للبعث أو شكهم فيه ، فتصوروا أن الدنيا هى كل شىء ، من ظفر بها فقد ربح ومن خسرها فقد خسر ، ولا رجعة بعد الموت ولا ثواب ولا عقاب .

وقد نتج عن ذلك كله أنهم أوغلوا فى الشر ، وانتشرت بينهم الرذائل والموبقات ، كالخمر والميسر ووأد البنات والاقتتال والتمثيل بالقتلى وغير ذلك ، حتى أولئك الذين عرفوا بمكارم الأخلاق منهم واشتهروا بفعل بعض الصالحات لم يكونوا يفعلون الخير الا رغبة فى

مديح الشعراء وثنائهم ليخلد ذكرهم - بعد الموت - بتلك الافعال على نحو ما تجد فى قول عروة بن الورد (٥) :

احاديث تبقى والفتى غير خالد
اذا هو امسى هامة تحت صبر

وفى قول سنان بن ابى حارثة (٦) :

قد يعلم القوم اذ طالت غزاتهم
فتق العشيرة والاكفاء شهادى

قد يعلم القوم اذا طالت غزاتهم
وارملوا الزاد انى منفد زادى

ولا اجيء بسوءات اعيرها
حتى يجيء من القبر ابن مياد

اثنوا على فكائن قد فتحت لكم
من باب مكرمة تعتد او واد

ولقد سمى ذلك العصر بالعصر الجاهلى ، لكثرة ما فشا فيه من الشر والفساد والحمق والطيش .

أما أقوالهم الدالة على عقيدتهم فى أن الحياة عبث لا جدوى منه ، وأنه لا بعث ولا حساب بعد الموت فمنها قول طرفة بن العبد فى معلقته (٧) :

---

(٥) الأصمعيات ص ٤٤ .
(٦) الأصمعيات ص ٢٠٩ . وسنان بن حارثة شاعر جاهلى وسيد شريف فارس ، وهو أبو هرم بن سنان ممدوح زهير بن أبى سلمى المشهور .
(٧) راجع شرح القصائد السبع الطوال لأبى محمد بن القاسم الأنبارى ص ١٩٨ .

فذرنى أروى هــــامتى فى حيــاتهـــا
ستعلم ان متنــا غــدا أينـــا الصــدى

كــريم يــروى نفســـه فى حيـــاته
مخـــافة شـــرب فى الممـــات مصــرد

الى آخــر الأبيــات .

ومما يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن الموت يصيب الناس من غير تقدير ولا حكمة تصوير زهير بن أبى سلمى - وهو من حكمائهم وأفضلهم - الموت بحــركة النــاقة العشــواء التى تخبط دون بصر أو ادراك ، وتسير من غير نظــام فلا تهتدى الى غــاية ، وذلك فى قوله (٨) :

رأيــت المنــايا خبــط عشـــواء من تصب
تمتـــه ومــن تخطىء يعمـــر فيهـــرم

ولقد ذهب أكثر النقاد والمؤرخين والدارسين مذهبا يخالف مذهب الدكتور عمر فروخ فى قضية دين الجاهليين .

فالأستاذ أحمد حسن الزيات يقول عن دينهم :

« .. كان بقيـــة أثرية من دين ابراهيم جاءتهم من وراء القـــرون عن طــريق الوراثة ، مشـــوهة لتطـــاول العهــد وتحكم الجهـــالة وعـــدم القـــرار ، فحـــالت فى نفوســـهم الى عبـــادة الأصـــنام وتعظيـــم الأوثان ونصبها على الكعبة تقــربا الى الله على زعمهم ، وهذه الوثنية كانت دين الكثرة من العــرب » (٩) .

ويقول الأستاذ السيد أحمد الهاشمى :

« كان للعـــرب فى الجاهلية دين ، ولكنه دين ضعيف لا يخلصون له

---

(٨) شرح المعلقات السبع ص ٦٩ للزوزنى .
(٩) تاريخ الأدب العربي ص ١٠ .

ولا يصل الى اعماق نفوسهم ، وحسبنا دليلا على ذلك اننا ننظر فيما بين أيديهم من شعرهم فنرى فيه الصيد كثيرا والخمر والنساء والميسر كثيرا ، والفخر والهجاء ووصف القتال كثيرا ، ولكن قل أن نرى فيه شرحا لعاطفة دينية ، وقل أن نرى فيه ذكر الله وتمجيده ، وقل أن نرى فيه وصفا لما كانوا يعبدون »(١٠) ٠

ويقول الدكتور شوقى ضيف :

« كانت كثرة العرب فى الجاهلية وثنية تؤمن بقوى الهية كثيرة تنبث فى الكواكب ومظاهر الطبيعة ٠٠٠ وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة فى بعض النباتات والجمادات والطير والحيوان ٠٠ فقد كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى كما جاء فى القرآن الكريم وكانوا يتعبدون لأصنام وأوثان كثيرة اتخذوها رمزا لآلهتهم »(١١) واستشهد الدكتور شوقى ضيف بما ورد فى القرآن الكريم واشارات الى أصنام الجاهلية وأسماء تلك الأصنام كاللات والعزى ومناة ويعوق ونسر ٠

والدليل الدامغ أن الجاهليين كانوا أصحاب عقيدة فاسدة فى أمر الآخرة ، لا يؤمنون بالبعث والحساب ما ورد فى القرآن الكريم من آيات كثيرة ترد على مزاعمهم فى انكار البعث واستبعادهم وقوعه ، ولقد سلك القرآن الكريم طرقا عدة فى رد باطلهم وتصحيح معتقداتهم ، واظهار الأدلة العقلية التى تبرهن على أن البعث والحساب والجزاء حق لا شك فيه ٠

وقد تنوعت هذه الطرق بين تعجب من مذهبهم ، وتهديد ووعيد لهم ، وتأكيد على حصول البعث والحساب ، واقناع بالأدلة المبثوثة

---

(١٠) جواهر الأدب فى أدبيات وانشاء لغة العرب ، ج ٢ ص ١١ ـ المكتبة التجارية ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م ٠

(١١) أنظر تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ـ ص ٨٩ ٠

فى الكون ، الناطقة بقدرة الله عـز وجـل قدرة مطلقـة لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء .

فمن التعجب من أمـرهم قول الله عـز وجـل :

« وان تعجب فعجب قولهم أءذا كنـا تـرابا أءنا لفى خلق جـديد أولئـك الذين كفـروا بـربهم وأولئـك الأغـلال فى أعنـاقهم وأولئـك أصـحاب النـار هم فيهـا خـالدون » سورة الرعد آية ٥ .

ومن الآيات التى سلكت طريق التأكيد على وقـوع البعث وحصوله قوله تعـالى : **« زعـم الذين كفـروا ان لن يبعثـوا قـل بل وربى لتبعثن ثم لتنبـؤن بما عملتم وذلك على الله يسـير »** (سورة التغابن آية ٧) . للنـاس أن الله الذى خلـق الانسـان من طـين قادر على اعادته وبعثـه الأدلة الحسية على امكان البعث ، وتحقـق الحيـاة الآخـرة ، وتبـين للنـاس أن الله الذى خلق الانسـان من طـين قـادر على اعادته وبعثـه بعد الممـات ، وما على الذين يرتابون فى ذلك الا أن ينظـروا فى آيات الله فى خلقـه ، لعـل الغشـاوة تنجلى عنهم فيهتـدون الى الايمان باليوم الآخـر وما فيـه ـ من الآيات التى سلكت هذا الطريق قـول الله عز وجل :

« يا أيهـا النـاس ان كنتم فى ريب من البعث فـانا خلقنـاكم من تـراب ثم من نطفـة ثم من علقـة ثم من مضغة مخلقـة وغيـر مخلقـة لنبـين لـكم ونقـر فى الأرحـام ما نشـاء الى أجـل مسـمى ثم نخرجكم طفـلا ثم لتبلغـوا أشـدكم ومنـكم من يتـوفى ومنـكم من يرد الى أرذل العمـر لكيـلا يعـلم من بعـد عـلم شـيئا وتـرى الأرض هـامدة فـاذا أنزلنـا عليهـا المـاء اهتـزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيـج . ذلك بأن الله هـو الحـق وأنه يحيى المـوتى وأنه على كل شىء قديـر . وأن السـاعة آتيـة لا ريب فيهـا وأن الله يبعث من فى القبـور » .

(سورة الحج : آيات ٥ ، ٦ ، ٧) .

ولقد بلغ عدد الآيات التى ردت على منكرى البعث فى القرآن الكريم مائة وستة وستين آية . هذا بيان يوضح أرقامها ومواضعها فى كتاب الله عز وجل .

اسم السورة	رقم الآية
يونس	٧ - ٨ - ١٥ - ٤٥ - ٤٨
هود	٧
الرعد	٥ - ٦
النحل	٢٢ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٣٨ - ٣٩
الاسراء	٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٩٨
الكهف	٤٨
مريم	٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٨٠
الحج	٥ - ٦ - ٧
المؤمنون	٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٧٤ - ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ١١٥ .
الفرقان	١١ - ١٢
النمل	٤ - ٥ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨
القصص	٣٩
الروم	٣٠
لقمان	٢٨
السجدة	١٠ - ١١
سبأ	٣ - ٧ - ٨ - ٩
يس	٤٨ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ - ٨٢

تابع بيان الآيات التى ردت على منكرى البعث

اسم السورة	رقم الآيـة
الصـافات	١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩
فصلت	٦ - ٧ - ٥٤
الدخـان	٣٤ - ٣٥ - ٣٦
الجـاثية	٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤
الأحقـاف	١٧ - ١٨ - ٣٣
ق	٣ - ٤ - ٥ - ١١ - ١٥
الذاريات	٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢
الواقعـة	٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣
التغـابن	٧
الجـن	٧
المدثـر	٤٦ - ٤٧ - ٥٣
القيـامة	٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٤٠
المرسـلات	٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤
النـازعـات	١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤
الانفطـار	٩ - ١٠
المطففـين	١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧
الانشـقاق	١٤ - ١٥
التـين	٧ - ٨
المـاعـون	١ - ٢ - ٣

ولقد كانت العقيدة المشوشة بشان البعث والحياة الآخرة عند أكثر العرب فى الجاهلية عاملا من العوامل التى زادت من احساسهم بالموت وقلقهم منه ٠

« واذا كان الخوف من الموت هو الشعور العام عند كل انسان ، فان هذا الشعور يتناقص كلما ازداد الايمان بأن هناك الها واحدا ، وان هناك بعثا وحياة أخرى بعد الموت ، وأن هناك حسابا ونعيما وعذابا ٠ اذا آمن الانسان بكل ذلك يتلاشى عنده الاحساس بالخوف من الموت ، وتحل بدلا منه سكينة دائمة ٠

وتؤيد الدراسات الاحصائية النفسية ذلك اذ ثبت منها زيادة قلق الموت لدى انخفاض قوة الاعتقاد الدينى »(١٢) ٠

* * *

---

(١٢) انظر : قلق الموت : د٠ أحمد محمد عبد الخالق ، عالم المعرفة - الكويت - مارس ١٩٨٧ ٠

الباب الثانى

انمــاط شــعر المــوت فى العصر الجاهلى

الفصــل الأول : رثــاء النفس .

الفصــل الثانى : رثــاء الآخـــرين .

الفصل الثالث : الحـــكمة .



الفصل الأول

رثاء النفس

الرثاء هو الفن الشعرى الذى تطور عن بكاء الميت والتحسر على فقده وعند الموت يكون الحزن والاشفاق ، ومحاولة التصبر والتعزى وقد كان النساء فى الجاهلية يطلن التعديد والبكاء الى سنين معدودة ، وكان لهن فى ذلك طقوس وتقاليد يدللن بها على شدة الحزن ، فيحلقن الرءوس ويلطمن الخدود ، ويخرجن نائحات ٠

ثم تطور عن هذه الامور فن الرثاء ، الذى اتخذه الشعراء مستودعا لعواطف الحزن على الموتى وسجلا يذكرون فيه أمجادهم ومآثرهم ، وأداة للتصبر والعزاء وتلمس السلوى ٠

والعاطفة فى الرثاء غالبا ما تكون صادقة ، ويتفاوت صدق العاطفة حسب الصلة التى تربط الشاعر بالموتى ، فهى فى رثاء الأبناء والآباء ، والزوجات أقوى وأصدق منها فى رثاء غيرهم من الناس ٠

وعلى هذا فالعاطفة فى رثاء النفس تكون أقوى العواطف وأصدقها ، فليس أقرب للانسان من نفسه ٠

ورثاء النفس يكون عند حضور الموت أو قرب حضوره - أو تخيل واحد من الأمرين فحضور الموت غالبا ما يتصور فى حالات الأسر أو الاصابة فى الحرب ٠ عندئذ يتصور الفارس الشاعر نفسه مودعا الحياة ، محمولا الى القبر ، فيتأثر بذلك ، ويتخيل ما يكون بعد موته من بكاء زوجه وذويه ويتم أبنائه من بعده ، ثم يأخذ فى التعزى

والتصبر ، بتذكر أمجاده السالفة ، ومآثره الباقية ، ومكرماته التى سيذكره الناس بها ، ففى كل ذلك استبقاء لذكره وخلود لسيرته .

أما تخيل الاحتضار فغالبا ما يكون عند بلوغ الشاعر أرذل العمر ، فتضعف قوته ، وتقل عند قومه قيمته ، فلا يؤبه به ولا يعتد برأيه ، فتثقل هموم الشيخوخة عليه ، ويتذكر شبابه ، وما كان يحفل به من بطولات ومآثر ثم لا يغنيه تذكره شبابه شيئا ، فقد سل المشيب عليه سيفه ، وجرده من قوته وأذهب لحميه وأوهن عظمه ، وأضعف بصره . عندئذ يتعجل الشاعر الموت ويستحضره ، ويشكو بثه وحزنه .

وفى مجال البحوث النفسية الحديثة « برهن عدد من الدراسات على وجود علاقة موجبة بين قلق الموت وقلق الزمن ... أن الوعى بالزمن يمكن أن يكون فى الحقيقة أحد مكونات قلق الموت ذاته ، ويؤكد ذلك أن الانشغال بالتغيرات الجسمية وبحالة الجسم يرتبط بقلق الموت »(١) .

والحق أن رثاء النفس فى الشعر الجاهلى أقل بكثير من رثاء الآخرين ويكاد يكون رثاء النفس مقصورا على طائفتين من الشعراء . فئة من الشعراء الفرسان ، وفئة من الشعراء المعمرين .

وأعتقد أن الشعراء الذين رثوا أنفسهم جديرون بالتعريف بهم على أنهم فئة متميزة من الشعراء . خاصة وأن كثيرا منهم من الشعراء المغمورين وإن كان بينهم بعض المشهورين .

* * *

---

(١) قلق الموت : د. أحمد محمد عبد الخالق .

الشعراء الذين رثوا أنفسهم

١ ـ امرؤ القيس

هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو الكندي ، من أهل نجد من شعراء الطبقة الأولى ، وهو أشهر شعراء الجاهلية ، يقول مؤرخو الأدب عنه (أنه أول من وقف واستوقف وبكا واستبكى) وذلك اشارة الى قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
. . . . الخ

كان أبوه ملكا على قبيلة بني أسد ، ثم ثاروا عليه فقتلوه ، ولما بلغ امرأ القيس نبأ قتل أبيه قال : « اليوم خمر وغدا أمر » .

وقد كانت حياة امرىء القيس شطرين . الشطر الأول قبل مقتل أبيه وكان فترة لهو وتفلت واستمتاع بالخمر والنساء ، والشطر الثاني بعد مقتل أبيه ، وكان فترة أسفار واعداد للثأر ، ومحاولة لاسترداد الملك المسلوب ، والانتقام من بني أسد قتلة أبيه .

فلقد كانت حادثة مقتل أبيه حدا فاصلا بين حياة لاهية ماجنة ، مسرفة في اللهو والمجون ، وحياة جادة حاول فيها الأخذ بثأر أبيه ورجع سلطان كندة على بني أسد ، لكن محاولاته باءت بالفشل ، فلم يحصد غير الحزن والشقاء ، (وكأنه كان يحس ما ينتظره حين قال :

كأني لم أركب جوادا للذة
ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل
لخيلي كري كرة بعد اجفال) (٢)

---

(٢) انظر : د. شوقي ضيف . العصر الجاهلي ص ٢٥٨ .

أما شعره الذى أعده من رثاء النفس فمنه هذه الأبيات :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

عصافير وذبان ودود وأجرأ من مجلحة الذئاب(٣)

وكل مكارم الأخلاق صارت اليه همتى وبه اكتسابى

فبعض اللوم عاذلتى فانى ستكفينى التجارب وانتسابى

الى عرق الثرى وشجت عروقى

وهذا الموت يسلبنى شبابى(٤)

ونفسى سوف يسلبها وجرمى فيلحقنى وشيكا بالتراب(٥)

الم انض المطى بكل خرق

أمق الطول لماع السراب(٦)

وأركب فى اللهام المجرحتى أنال مآكل القحم الرغاب(٧)

وقد طوفت فى الآفاق حتى

رضيت من الغنيمة بالاياب

أبعد الحارث الملك ابن عمرو

وبعد الخير حجر ذى القباب(٨)

---

(٣) مجلحة الذئاب : المصممة التى لا ترجع عما تريد .

(٤) وشجت : اشتبكت واتصلت ويشير بعرق الثرى الى آبائه الذين ماتوا

(٥) جرمى : جسمى .

(٦) انض المطى : أهز لها بطول الرحلة . الخرق : الفلاة : أمق الطول : واسع الطول .

(٧) اللهام : الجيش الكثيف . المجر : الكثير . المآكل : الغنائم . القحم : جمع قحمة من الاقتحام ، والمراد : التزاحم فى شدة . الرغاب : الواسعة .

(٨) القباب : الخيام الكثيرة .

أرجى من صروف الدهر لينا
ولم تغفل عن الصم الهضاب(٩)

واعلم اننى عما قليل سانشب فى شبا ظفر وناب(١٠)

كما لاقى أبى حجر وجدى ولا انسى قتيلا بالكلاب(١١)

ان الشاعر فى هذه الأبيات فى حالة تأمل لما يصير اليه الناس ، فالكل يكدح الى الموت كدحا ، ويسرع اليه اسراعا ، لكن الانشغال بالطعام وبالشراب يلهى الناس عما ينتظرهم ، ويذهلهم عن مصيرهم .

ان التجارب التى عاشها الشاعر فى الشطر الثانى من حياته هى التى بصرته بتلك الحقيقة ، وايقظت فى نفسه تلك المشاعر .

انه ما يزال يذكر مكارمه وعلو همته وتجاربه وشرف نسبه لكن ذلك كله لن يغنى عنه شيئا أمام هذا المصير المرتقب ، الذى سبقه اليه آباؤه وأجداده ، فالموت مدركه لا محالة ، والتراب مثواه الذى لا مفر منه .

وعندما يصل الشاعر الى هذا الحد فى استحضار مصيره وتخيل قبره ، يحاول التعزى بتذكر بعض ما كان فى حياته من مواقف ، ويتعجب من تبدل حاله من قوة وشجاعة واقدام وبطولة الى موت وشيك وفناء قريب . ألم يكن رحالة ذا أسفار طويلة يجوب فيها الصحراء الواسعة الطويلة العريضة المخوفة المهلكة للابل ؟! ألم يكن محاربا شجاعا يقود الجيش الكثيف ؟! ألم يكن جريئا مقداما يستحوذ على غنائم الأعداء ويسلبهم ما بأيديهم ؟!

---

(٩) الصم : المصمتة الصلبة . الهضاب : الجبال .
(١٠) شباكل شيء : حده . أنشب : أعلق .
(١١) قتيل موقعة الكلاب : هو شرحبيل عم امرىء القيس .

لكن تعجب الشاعر لا يلبث أن يزول ، فها هو ذا يرضى من الغنيمة بالإياب ويقبل راضيا المصير الذى ينتظره ، وهل يملك شيئا غير ذلك ؟! انه المصير الذى لم يستطع اجداده الملوك الفرار منه ٠٠٠ أبعد أولئك السادة ينتظر الشاعر خلودا فى الحياة ؟! وأنى له أن يفلت من قبضة الفناء ، والهضاب الصم والجبال الصلبة تفنى ؟!

ويرى الشاعر موته قريبا ، ونهايته وشيكة ، ويتذكر أباه وجده وعمه الذين سبقوه الى الموت أو سبقه الموت اليهم :

واعلم اننى عما قليل سانشب فى شبا ظفر وناب
كما لاقى ابى حجر وجدى ولا انسى قتيلا بالكلاب

ولقد وافت الشاعر منيته وهو غريب عن دياره ، بعد انصرافه من القسطنطينية فى تلك الرحلة التى قصد بها قيصر الروم ليطلب منه المعاونة على استرداد ملك كندة ، ولقد قيل أن رجلا من بنى أسد يقال له (الطماح) وشى بامرىء القيس عند القيصر ، وأخبره أنه كان يواصل ابنته ، وأن له فيها أشعارا تفضحها وتفضح أباها ، فأراد القيصر الانتقام من الشاعر فارسل اليه بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب ، فلما لبسها أسرع فيه السم وسقط جلده ، فقال :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه
ليلبسنى مما يلبس أبؤسا

فلو انها نفس تموت سوية
ولكنها نفس تساقط انفسا

وأحتضر ببلدة من بلاد الروم تسمى أنقره ، فكانت أرضها محل نهايته ونهاية قصته كما قال :

رب خطبة مسحنفرة وطعنة مثعنجرة

وجفنـــــــة متحـــيّرة حلـت بـــارض انقـــرة

ورأى قبر امــرأة فى ذلك الموطن ، أخبر أنهــا ماتت غريبــة مثـله فدفنت فى سفح جبل يقال له عسيب ، فقال :

اجـارتنـــا ان المـــزار قـريب وانى مقيـــم مـا اقـــام عسـيب

اجـارتنا انا غـريبان ها هنـا وكل غـــريب للغـــريب نسـيب

اجارتنا ما فـات ليس يئـوب ومـا هـو آت فى الزمـان قـــريب

وليس غـريبا من تناءت دياره ولـكن مـن واراه التراب غـــريب

وهكذا نرى امــرأ القيس فى ذلك الشعر الرقيق منهزما أمام الموت ، يلقـاه غريبا ، بعيـدا عن دياره بعد أن مـلأ الدنيـا صخبا بمغـامراته وأسـفاره وأشعاره ، وها هو ذا يلتمس نسـبا بامــرأة ماتت غريبة مثله ، وهو يعـلم أن ذلك النسب لا ينفــع ولا يشـفع ، ثم مات الشـاعر فدفن الى جنب تلك المــرأة ، فقبره هنــاك .

* * *

٢ ــ بشـر بن ابى خـازم

احد شـعراء بنى اسـد وفرسـانها المقدمين ، يحفل شعره بالحماسة والفخـر ، ويكثر فيـه الحديث عن أيام بنى أسـد وحروبها التى انتصرت فيهـا كما ان له شـعرا فى المـديح والهجـاء والوصف والغزل والرثاء ٠

وله ديوان شعر مطبوع ، وقد عـده ابن اسـلام فى الطبقة الثـانية من الفحـول(١٢) ٠

كان بشر كثيـر الغـزو والاغـارة ، وفى احـدى غـزواته أصيب ابنتــه عميــرة التى تخيلهـا ، منتظـرة عــودته ، مشتاقة الى أبيهـا ابنتــه عميـرة التى تخيلهـا ، منتظـرة عـودته ، مشـوقة الى أبيهـا وما يحمـله معــه من غنـائم ، فهى تسـال عنـه زملاءه الذين كانوا معه فى الغـزو ، وتبحث عنـه بينهم ٠

يرسم الشـاعر هذه الصـورة لفتـاته التى اعتادت أن يعود أبوها من كل غـزواته سـالمـا غانما ، لكنه يخبرها أنه لن يعود هذه المـرة ، فيقـول :

اسـائلة عميــرة عـن أبيهــا　　　خـــلال الجيـش تعتـرف الركابا

تؤمــل أن أؤب لهـــا بنهـب　　　ولم تعـلم بـأن السـهم صـــابا

فرجى الخير وانتظـرى ايابى　　　اذا مـا القـــارظ العنـــزى آبـا

والقارظ العنزى رجل من عنزة ٠ قالوا انه خـرج يطلب القـرظ فهلـك ولم يعـد ، وبه يضرب المثـل فى امتـداد الغيبـة واليـأس من العودة ، وبشر بهذا البيت ، يريد أن يقطـع رجـاء ابنتـه فى عودته

---

(١٢) راجع بشر بن أبى خازم حياته وشعره ــ رسالة ماجستير مخطوطة ــ بكلية اللغة العربية ــ حسن أحمد عبد الحميد عبد السلام ٠

وأن يصرفها عن الأمل والانتظار . لكن الطريقة التى عبر بهـا الشـاعر عن هذا المعنى توحى بالحسرة والحـزن الشـديدين ، وتدل على ما كان يعـانيه الشـاعر فى ذلك الموقف الرهيب ، وهو يموت جـريحا ويتذكـر ابنته التى تنتظره وترجو عودته . ففى البيت الأخير تعبيـر عن الأمـل المرجو بالنجاة والعودة يعقبه تعبير عن اليأس منهما ، طمع ثم يأس .. وكان الشاعر يسخر من أمل ابنته فى عودته . اذ يربط عـودته بعـودة القارظ العنزى وما دامت عـودة القارظ مستحيلة فأن عـودة الشـاعر مستحيلة كذلك .

فرجى الخيـر وانتظـرى ايابى   اذا مـا القـــارظ العنـــزى آبا

ثم يسـوق الشـاعر الى ابنتـه خبر اصـابته بسهم قاتل ، رماه به فتى من الأعـداء يشتعل حماسـا وفتـوة ، ولم يرد الشـاعر أن يترك ريبـة فى نفس ابنتـه من ذلك الأمـر ، فسـاق لها الخبـر مؤكدا عن طـريق استخدام الجملة الاسمية المؤكدة بأن ، وعن طـريق التكـرار ، فقـال :

فـان أبـاك قـد لاقى غـــلاما   مـن الأبنـــاء يلتهـب التهـــابا

وان الـوائلى أصـــاب قلبى   بســـهم لـم يـكن يكـسى لغـــابا

ثم يعـين الشـاعر لابنتـه مكانه الذى سيقبر فيـه ، لعـل أحـدا يسـأل عنـه ، أو لعـل أحـدا يريد أن يزوره عند مثواه الأخير .

فمـن يـك ســائلا عـن بيـت بشـــر

فـــان لـه بجنـــب الــــرده بـــابا

رهـــين بـلي وكـل فـــتى ســـيبلى

فـأذري الدمـــع وانتحـبي انتحـــابا

ثـوى فى ملحـد لابـد منـه كـفى بالمـوت نـأيا واغتـرابا

ويرى الشـاعر مصـيره ويدرك انه قد أصبح رهـين البلى والفناء ، فيطلب من ابنتـه أن تبكيه وتذرى الدمـع وتنتحب من أجـله ، ولعـله أراد أن يتعـزى ويتصـبر بذلك عن مصـيره الذى آل اليـه . نائيـا عن داره وأهـله وابنتـه ، غـريبا فى أرض بعيـدة غـربة ليس لها انقطـاع ولا منهـا رجـوع .

كفـى بالمـوت نـأيا واغتـرابا !

* * *

٣ — عبيد بن الأبرص

هو من شعراء الجاهلية القدماء ، وهو من بني أسد ، كان معاصرا لامرئ القيس ، وكان من المعمرين ، وقد قتله المنذر بن امرئ القيس اللخمى بن ماء السماء فى يوم بؤسه ، فقد كان لهذا الملك يوم بؤس ويوم نعيم ، وكان يقتل أول من رأى فى يوم بؤسه ، فخرج فى يوم بؤسه فلقى عبيدا ، فقال له : هلا كان المذبوح غيرك يا عبيد ؟! فقال : (اتتك بحائن رجلاه) فقال له : (انشدنا يا عبيد) ، فقال (حال الجريض دون القريض ، وبلغ الحزام الطبيين) فقال الملك انشدنى فقال : (المنايا على الحوايا) فقال بعض القوم : (أنشد الملك هبلتك أمك) ، فقال : (وما قول قائل مقتول ؟) وقال آخر : (ما اشد جزعك بالموت) فقال : (لا يرحلن رحلك من ليس معك) فقال الملك قد أمللتنى فارحنى قبل ان آمر بك فقال عبيد : (من عز بز) فقال الملك : انشدنا قولك : اقفر من أهله ملحوب فانشده :

اقفر من أهله عبيد   فاليوم لا يبدى ولا يعيد

وقد صار هذا البيت مثلا فى الهلاك . ثم قال الملك لعبيد : لابد من الموت فاختر ان شئت من الأكحل ، أو من الأبجل ، أو من الوريد ، فقال عبيد : ثلاث خصال كسحابات عاد ، واردها شر وراد ، وحاديها شر حاد ، ومعادها شر معاد ، ولا خير فيها لمرتاد ، وعند قتله قال :

وخيرنى ذو البؤس فى يوم بؤسه

خصالا أرى في كلها الموت قد برق

كما خيرت عاد من الدهر مرة

سحائب ما فيها لذى خيرة انق

سحائب ريح لم توكل ببلدة

فتتركها الا كما ليلة الطلق(١٣)

* * *

(١٣) راجع خزانة الأدب للبغدادي ، ت : هارون ج ٢ ص ٢١٧ ـ الخانجي .

٤ — عبد يغوث الحارثى

هو عبد يغوث بن صلاءة ، من بنى الحارث بن كعب من كهلان ، من اليمن (عرب الجنوب) كان رجلا عظيم الجسم جميلا ، وكان كريما وفارسا معدودا وسيدا فى قومه ، قاد قومه يوم الكلاب الثانى على بنى تميم وأحلافهم ، فقتل وأسر من قومه عدد كبير ، ثم وقع هو فى الأسر .

وأراد عبد يغوث أن يفتدى نفسه بمائة من الابل ، ولكن بنى من بنى الحارث فارس معدود ، فلابد من قتل عبد يغوث بالنعمان فكان مقتل عبد يغوث فى عام ٦١٣ م قبل الهجرة بنحو عشر سنين .

ولما عزم بنو اليتم على مقتل عبد يغوث شدوا لسانه بنسعة مخافة أن يهجوهم ، فقال : انكم قاتلى ولابد ، فدعونى اذم أصحابى وأنوح على نفسى ، فقالوا : انك شاعر ونخاف أن تهجونا ، فعقد لهم ألا يفعل . فاطلقوا لسانه ، وأمهلوه حتى قال قصيدته التى رثى فيها نفسه(١٤) ، وبدأها بدفع الملامة والذم عن نفسه ، ونفى تهمة التقصير عنها ، وقرر ان اقدامه وجراته هما سبب وقوعه فى الأسر ، ولو كان جبانا لفر على فرسه السريعة ونجا بنفسه ، وهو اذ يقرر ذلك يلوم قومه ويعتب عليهم . لكنه فى الوقت نفسه يعترف بانه لا خير فى اللوم له ولا لهم ، وينصرف الى نفسه يصور معاناتها الرهيبة فى الأسر ومواجهة الموت ، يقول عبد يغوث :

---

(١٤) راجع : قصيدة عبد يغوث وقصة أسره فى العقد الفريد جـ ٥ ص ٢٢٨ ط دار الكتاب العربي - بيروت .

الا لا تلومـــانى كـفى اللـــوم ما بيـــا
فما لـكما فى الـلوم خيـر ولا ليـا(١٥)

الـم تعلمـا ان المـلامـــة نفعهـــا
قليـل ، وما لومى اخى من شماليا(١٦)

فيـا راكبـا امـا عـرضت فبلغــن
نداماى من نجـران أن لا تلاقيـا(١٧)

جـزى الله قـومى بالـكلاب مـلامـة
صريحهم والآخـرين المـواليـا

ولـو شـئت نجتنى مـن القـوم نهـدة
ترى خلفها الحـو الجيـاد تواليـا(١٨)

ولـكننى احمـى ذمـار أبيـكم
وكاد الرمـاح يختطفن المحاميـا(١٩)

ثم يصـور الشـاعر فعـل آسريه به ، ويحكى ما دار بينـه وبينهم من حديث ، فقد توسـل اليهم ان لا يربطـوا لسـانه ، وطلب منهم أن يخـلوا سـبيله ، بعد ان ملـكوه واصبح أسـيرا لديهم ، ويؤكد لهم أنه برىء من دم صاحبهم النعمـان بن الحسحاس وأنه لم يقتـله ، ويعـرض

---

(١٥) فى شرح المفضليات القسم الثـانى ص ٦٠٧ قصيدة عبد يغـوث وشرحها ، ومنه نقلت هذا الشرح . يقول : كفى اللوم ما أنا فيه ، فلا تحتاجون الى لومى ، مع ما ترون من اسارى وجهدى .
(١٦) شمال ، بالكسر : بمعنى الخلق . والجمع شمائل .
(١٧) عرضت : تعرضت وظهرت ، وقيل معناه : بلغت العروض وهى جبال نجد . وهؤلاء كانوا نداماه هناك ، فذكـرهم عند موته وحـن اليهم .
(١٨) النهدة : المرتفعة الخلق ، وكل ما ارتفع يقال له : قد نهـد والحواء من الخيل التى تضرب الى خضرة . وتواليا : أى تتلوها .
(١٩) الذمار : ما يجب منعه وحفظه ، من منع جار ، أو طلب ثأر ، ويختطفن : يختلسن .

عليهم أن يأخذوا مـالا فدية له ، لكنهم رفضوا ٠ يقول عبد يغوث :

اقـول وقد شـدوا لسـانى بنسـعة
أمعشـر تيـم اطلقـوا عن لسـانيا

أمعشـر تيـم قـد ملكـتم فاسـجحوا
فـان اخـاكم لم يكن مـن بوائيـا

فـان تقتـلونى تقتـلوا بى سـيدا
وان تطلقـونى تحـربونى بماليـا(٢٠)

وتكـرار النداء فى قـوله (أمعشر تيم) فى الأبيات السـابقة يدل على تلهف الشـاعر على أن يستجيب آسروه لطلبـه ، وأن يسمعوا لقوله ، وعلى تعلـق الشـاعر بالأمـل فى أن يعفـوا عنـه ورجـائه النجـاة وحرصـه عليهـا ٠

ان الشـاعر فى هذا الوقت العصيب يدرك ان خطوات معدودة بينه وبين المـوت وهو فى تعلقـه بالحيـاة وحرصـه عليهـا لا يملك غيـر أن يستعيد ذكـرياته الحـلوة يسـلى بها نفسـه ، ويتسـاءل متعجبـا : أحقـا حانت لحظـة الوداع ، فلن يسـمع بعد أناشيد الرعـاة ؟ ويا لهـا من مـرارة يحسها ذلك الشـاعر الفـارس عنـدما تسـخر منـه امـرأة عبشمية ، وتعيره بالأسر ٠

فقد قيـل ان الذى أسر عبد يغـوث هو عصمة بن أبيـر التيمى وانه

---

(٢٠) أقول وقد شدوا ٠٠ الخ هذا مثل واللسان لا يشد بنسعة ، وانما أراد افعلوا خيرا ينطق لسانى بشكركم ، فانكم ما لم تفعلوا فلسانى مشدود لا أقدر على مدحكم ، وقال أبو عبيدة : كانوا قد شـدوا لسانه مخافة هجائه ، فجعل لهم الا يهجوهم ، فاطلقوا لسانه ٠ أسجحوا : سهلوا ويسروا فى أمرى ٠ يقول : لم أقتـل صاحبكم ولست له بواء ٠ أى لم يكن أخوكم نظيرا لى فاكون بواء له ٠

خبأه عند رجل يسمى الأهتم ، فوضعه الأخير عند امرأته العبشمية ؛ حتى أخذه بنو الحسحاس ليقتلوه .

وروى أن امرأة الأهتم أعجبها جمال عبد يغوث وكمال خلقه ، وكان عصمة الذى أسره غلاما نحيفا ، فقالت المرأة لعبد يغوث من أنت ؟ فقال : أنا سيد القوم . فضحكت وقالت : قبحك الله سيد قوم حين أسرك مثل هذا !(٢١) .

يصور عبد يغوث كل ذلك فيقول :

أحقا عباد الله أن لست سامعا
نشيد الرعاء المعزبين المتاليا(٢٢)

وتضحك منى شيخة عبشمية
كأن لم ترى قبلى أسيرا يمانيا

ويذكر الشاعر فى خضم محنته زوجته مليكة ، وكأن سخرية العبشمية منه جعلته يخشى أن يهون فى عين امرأته فأراد أن يذكرها بما تعلمه عنه من شجاعة وبطولة ، ثم يتذكر الشاعر طرفا من مآثره السالفة ، يتعزى بذلك عما وقع له وحل به ، فيقول :

وقد علمت عرسى مليكة أننى
أنا الليث معدوا عليه وعاديا
وأعقر للشرب الكرام مطيتى
وأصرع بين القينتين ردائيا

---

(٢١) أنظر العقد الفريد : جـ ٥ ص ٢٢٨ .
(٢٢) المعزب : المتنحى . المتالى : قد نتج بعضها وبقى بعض .

وكنت اذا ما الخيل شمصها القنا
لبيقا بتصريف القناة بنانيا
وعادية سوم الجراد وزعتها
برمحى وقد إنحوا الى العواليا
كانى لم أركب جوادا وليم اقل
لخيلى كرى نفسى عن رجاليا
وليم اسبا الزق الروى ولم اقل
لأيسار صدق اعظموا ضوء ناريا(٢٣)

ذلك هو الماضى الذى يفخر به الشاعر ، ويتعزى به عما حدث له ، وحسبه أن مليكة تعرف شيمه وأخلاقه ، ولابد أنها ستعذره وتدرك أن أسره كان بسبب جرأته واقدامه ، ويشهد له ماضيه ، فهو الشجاع الكريم ، كان نحارا للجزور ، يعقر لأصحابه ونداماه مطيته ، ويشق بين القينتين فى مجالس اللهو والطرب رداءه ، وكان صاحب رحلات وأسفار يقطع القفار الموحشة وينزل الأماكن المخوفة ، ويمضى فى الأماكن التى لا يجرؤ أحد على السير فيها ، وكان فى الحروب فارسا لا يشق له غبار ، خبيرا بتصريف القناة ، قادرا على انقاذ زملائه من الشدائد ، وتنفيس كرب الحرب عنهم .

وعبد يغوث وهو يذكر تلك المآثر يعبر بصيغة الماضى . لكنه يعود الى حاضره ، فها هو ذا يواجه الموت وتوشك حياته على

---

(٢٣) الشرب : جمع شارب . كصاحب وصحب . السباء : اشتراء الخمر للشرب لا للبيع . والأيسار : الذين يضربون القداح .

نهايتها ، فيشعر بأن كل ما كان من مجـد وبطولة ذهب هبـاء فلم يشفع له منـه شيء . ولم يغن عنه ماضيه في محنـة أسره وقتـله شـيئا ، ذلك ما عبر عنـه فى نهاية قصيدته اذ يقول :

كانى لـم أركـب جـوادا ولـم اقـــل

لخيـــلى كـــرى نفسى عـن رجـــاليـا

ولـم أسـبأ الـزق الـروى ولـم اقـل

لأيســـار صـــدق اعظمـوا ضـوء ناريا

* * *

٥ — عمــرو بن قميئــة

هو عمــرو بن قميئــة بن ذريح بن سعد بن مالك ، أحد بنى ضبيعة ابن قيس بن ثعلبة من بنى بكر بن وائل ٠

مات أبوه وهو صغير ، فكفلــه عمــه مرثد بن سعد ، وكان عمــرو جميــلا فافتتنت به زوجــة عمــه ، لكنه أبى عليهــا ، فدبرت له مكيدة انتقــاما منــه ، وزعمت لزوجهــا ان عمــرا ابتغــاها ، وخــاف عمــرو سطوة عمــه ، فهــرب الى الحيــرة ، ولجــا الى المنذر بن ماء السماء ، وقال شعرا مدح فيــه عمــه ، وتبرا فيــه مما الصقته به زوجــه ، فلمــا رضى عنه عمــه عــاد الى قــومه ٠

وخــدم عمــرو بن قميئــة الملك حجــر بن الحــارث والد امرىء القيس ، واصطحبه امــرؤ القيس فى رحلته الى بلاد الروم ، وهو المعنى بقول امــرىء القيس :

بــكى صــاحبى لمــا رأى الــدرب دونــه
وايقــن أنا لاحقــــان بقيصــــــرا

وكان عمــرو أثنــاء هذه الرحــلة طاعنــا فى الســن ، ويبدو أن بكاءه كان اشفاقا على نفســه الضعيفة ، وخوفا من الموت فى الغربة ٠

وقد توفى أثنــاء هذه الرحــلة ، وسمته العــرب عمــرا الضــائع وكانت وفاته قبــل الاســلام بنحو سبعين سنة (٢٤) ٠

وقــد وصف عمــرو فعــل الدهــر به ، ورميــه اياه بالمصــائب ، وعجــزه وذهاب قــوته بسبب كبــر سنه ، واخبــر أن النــاس يأخذهم

(٢٤) راجع تاريخ الأدب العربى للدكتور عمر فروخ جـ ١ ص ١١٤ ٠ والشعر والشعراء ص ٢٣٨ ٠

العجب عندما يرونه بهذا الوصف ، ويتساءلون فى دهشة : ألم تكن جليدا قويا ! .

وفى حسرة وتعجب من انصرام الأيام وانقضاء الأعوام يصف عمرو بن قميئة ما فعلته به أحداث الدهر ، وفى دقة وبراعة يصور هيئته عندما يروم القيام ، فيتسند على عصاه مرة وعلى راحتيه أخرى ، ويقوم فيتعثر فى محاولاته حتى ينهض بعد ثلاث مرات .

يقول عمرو بن قميئة (٢٥) :

رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى
فكيف بمن يرمى وليس برام

وأهلكنى تأميل ما لست مدركا
وتأميل عام بعد ذاك وعام

وإذا ما رآنى الناس قالوا : ألم تكن
جليدا حديث السن غير كهام

فلو أننى أرمى بنبل رميتها
ولكننى أرمى بغير سهام

على الراحتين مرة وعلى العصا
أنوء ثلاثا بعدهن قيامى

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة
خلعت بها عنى عذار لجامى

---

(٢٥) راجع تاريخ الأدب العربى ـ فروخ جـ ١ ص ١١٤ . ويعنى بقوله تأميل مالست مدركا الخلود . والكهام : السيف الكليل الذى لايقطع ، والبيت الأخير معناه أن العمر انقضى بسرعة وكأنه مقدار ما يخلع الرجل اللجام من رأس دابته .

ويبدو أن كل المعمـرين تنتابهم تلك المشاعر المتناقضة يسأمون الحياة ، ويستقلون مدتها فى آن ٠

كما يقول أكثم بن صيفى حكيم العـرب وخطيبهم فى الجاهلية :

وان امـرءا قـد عـاش تسعين حجـة
الى مـائة لـم يسـام العيـش جـاهـل
مضـت مئتـان غيـر سـت واربـع
وذلـك مـن عـد الليـالى قـلائل

لكن المـوت خير من حيـاة المـرض والعجـز على أية حـال ، وأى قيمـة لرجل مـله أهـله وبنـوه ، وأصبح قعيد البيت يقضى الأمـر حين يغيب ولا يستشـار وهو حاضر ، ولا يجلس معـه الا أحفـاده الصـغار يلاعبهم ويلاعبونه ٠ عندئذ يكون المـوت أفضـل من الحيـاة على نحـو ما يلقانا فى قـول المستوغر (٢٦) :

اذا مـا المـرء صـم فـلم ينـاجى
وأودى سـمعه الا نـدايـا
ولاعـب بالعـشى بنى بنيـه كفعـل الهـر يحترش العظـايا
يلاعبهم وودوا لـو سـقوه مـن الذيفـان مترعـة مـلايا
فـلا ذاق النعيـم ولا شـرابا ولا يسـقى مـن المـرض الشـفايا
فذاك الهـم ليـس لـه دواء سـوى المـوت المنطـق بالمنـايا

وكما فى قـول زهير بن جناب الكلبى (٢٧) :

والمـوت خيـر للفـتى وليهلـكن وبـه بقيـة
من أن يرى الشيخ البجا ل وقـد يهـادى بالعشـية

---

(٢٦) طبقات فحول الشعراء ص ٣٤ ٠
(٢٧) المصدر نفسه ص ٣٧ ٠

٦ ـــ الأســود بن يعفـــر

هو الأســود بن يعفــر بن عبد الأسود بن جندل بن نهشل بن دارم من بنى تميم ، كان أحــد شعراء العصر الجاهلى وفرســانه ، أسر امــرأة من بنى نهــد فى غــارة ، وتزوجها ، كان كثير الترحال والأسفار (٢٨) ، سمى الأسود ذا الآثار لأنه ما هجا أحدا الا ترك فيــه أثرا من هجــائه ، وهو مجيد غير مكثر ، اختــار المفضــل الضبى له قصيدتين ، وترجم له ، وفى هامش شرح المفضليات للتبريزى قال : « كان الأسود شاعرا فحــلا متقــدما فصــيحا من شعراء الجاهلية يكثر التنقل فى العرب ويجاورهم ، فيذم ، ويحمد ، وله فى ذلك أشعار »(٢٩) .

وقد كبر الأسود ، وكف بصره ، وتوفى سنة ٥٨٥ م تقريبا وقصيدته التى أثبتها هنــا قال عنها ابن اســلام :

« وله واحدة طويلة رائعــة لاحقــة بأجود الشعر ، لو كان شفعها بمثلها قدمنــاه على مرتبتــه »(٣٠) وهى التى رثا فيها نفســه ، واشتكى فى أولها الهم والسهد اللذين لازماه فمنعــاه النوم ، وبين أن الحــوادث قد عمت عليــه أمــره ، وسدت عليــه سبله ، فاصبح لا يهتدى الى غاية ، وهذه هى القصيدة وشرحها :

١ ـ نــام الخــلى ومــا احــس رقــادى
والهــم محتضـــــر لــدى وســـادى

الخلى : الخالى من الهموم ، وقوله ما أحس : أى لا أجــد منــه أثرا . محتضر : حاضر .

---

(٢٨) انظر : فروخ ، تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ١٥٨ .
(٢٩) شرح المفضليات : القسم الثانى ص ٧٩٠ .
(٣٠) طبقات فحول الشعراء : ص ١٤٧ ، ط شاكر .

٢ - من غير ما سقم ولكن شفني
هم اراه قد اصاب فؤادي

يقول : سهرت من غير علة ، ومعني شفني : اذابني : وذلك لضعفه وكبره وعماه .

٣ - ومن الحوادث لا ابالك انني
ضربت على الأرض بالأسداد

الأسداد : جمع سد . أى عمى على أمرى ، فصرت لا أتجه جهة . فكان المسالك مسدودة على .

٤ - لا اهتدى فيها لموضع تلعة
بين العراق وبين ارض مراد

ثم يتعزى الشاعر بذكر من سبقوه ، وقد كانوا أشد منه قوة وأكثر جمعا ، وينتظر أن يكون سبيلهم سبيله ومصيرهم مصيره ، وهو الموت الذى لا يدفعه دافع .

لقد هلك من قبله ذو الأعواد عزيز قومه الذى عمر طويلا ، ومات آل محرق وآل اياد ، وأهل الخورنق والسدير وبارق ، وفنى كعب بن مامة مضرب المثل فى الجود ، وأبو دؤاد الايادى الشاعر المعروف . لقد هلكوا جميعا ولم يمنعهم من الموت مانع .

٥ - ولقد علمت سوى الذى نباتنى
ان السبيل سبيل ذى الأعواد

قال أبو عبيدة : ذو الأعواد : جد أكثم بن صيفى ... كان معمرا ، وكان من أعز أهل زمانه ، فاتخذت له قبه على سرير ، فلم يأته خائف إلا أمن ، ولا ذليل الا عز ، ولا جائع الا شبع . فيقول : لو اغفل

الموت أحدا لاغفل ذا الاعواد ، واذا كان مصيره الى الفنـاء فمن دونه مثـــله ٠

٦ ـ ان المنيـــة والحتـــوف كلاهمـا
يـوفى المخـــارم يرقبـــان ســـوادى

يوفى : يعلو وهو مـردود على لفظ (كلا) فافـرد ٠ والمخـارم : جمـع مخـرم وهو منقطـع أنف الجبل ، والغلظ ٠ ويرقبان بالتثنية ـ على المنيـة والحتوف ٠ والسواد : الشخص ٠ يريد أن المنية والحتوف ترقبـــه ٠

٧ ـ لـن يرضـــيا فى وفـاء رهينـــة
مـن دون نفـسى طـــار فى وتـلادى

الطـارف : ما استفاده الرجل ٠ والتالد : ما ورثه عن الآباء ٠

والمعنى : أن المنية والحتوف لن يرضيا كل ما أملك فداء لنفسى ٠

٨ ـ مـاذا أؤمـــل بعـد آل محـــرق
تـركـــوا منـــازلهـم وبعـــد ايـــاد

٩ ـ اهـل الخـورنق والسـدير وبـارق
والقصــــر ذى الشـــرفات مـن سنداد

١٠ ـ أرضـــا تخيـرها لطيب مقامها
كعـب بـن مـــامة وابـن أم دؤاد

١١ ـ جـرت الرياح على محـل ديارهم
فـكانمـــا كـانوا عـلى ميعـــــاد

١٢ ـ ولقـد غنـوا فيهـا بانعم عيشـة
في ظـــل مـــلك ثـابت الأوتـــاد

غنوا : اقاموا ، يقال : غنينا بمكان كذا وكذا اذا اقاموا به ، والمغنى : المنزل ٠

١٣ - نزلوا بانقرة بسيل عليهم
ماء الفرات يجيء من أطواد

الأطواد : جمع طود ، وهو الجبل ٠

١٤ - فاذا النعيم وكل ما يلهى به
يوما يصير الى بلى ونفاد

والمعنى : كانوا كذلك ، ففاجاتهم الأحداث بما حولهم وشغلهم عن ملاهيهم ، وانتهى جميعه الى البلى والزوال ٠

ويجد الشاعر فى أولئك وغيرهم ممن رماهم الدهر بسهامه ، وأذهب نعيمهم وقوتهم العبرة والسلوى ، فيقول :

١٥ - فى آل غرف لو بغيت لى الأسى
لوجدت فيهم أسوة العداد

١٦ - ما بعد زيد فى فتاة فرقوا
قتلا ونفيا بعد حسن تأد

زيد : قبيلة ٠ قال أبو عبيدة : كان المنذر بن ماء السماء خطب على رجل من اليمن من أصحابه امرأة من بنى زيد بن مالك بن حنظلة ، فابوا أن يزوجوه ، فنفاهم من أرضه ودياره ، وفرقهم ٠ وقوله : بعد حسن تأد : أى بعد تمكنهم ٠

١٧ - فتخيروا الأرض الفضاء لعزهم
ويزيد رافدهم على الرفاد

وذلك قبل أن يصابوا ٠ والرفد : العطية ؛

ثم ينتقل الشاعر الى الحديث عن نفسه ، مخاطبا زوجه قائلا :

ان رأيتنى الآن قد شخت وكبرت سنى ، وذهب شبابى ، وضعفت قوتى ، وغير هيئتى ما حل بجسمي من وهن ، وما أصاب بصرى من نقص ، وتركت مرافقة الشبان ، وصرت منقادا لا حول لى ولا قوة ، فما يزال عندى بقية من ماض وبعض مال وقوة ، فانى أروح الى بيوت الخمارين ، مرجلا شعرى ، مستمتعا بما بقى من شبابى ومالى ، واذا كان ذلك حاضرى فانى اذكرك بما حفل به ماضى حياتى من لهو ومن جد ، فكم استمتعت بالخمر وبالنساء ، وكم سافرت وترحلت ، وركبت الخيل والنوق ، ورعيت الخصب ، واقتنصت الوحوش .

بهذا الماضى يسلى الشاعر نفسه ، ويرد تلوم زوجته ، فيقول :

١٨ - اما ترينى قد بليت وغاضنى
مـا نيل من بصيرى ومن اجلادى

١٩ - وعصيت أصحاب الصبابة والصبا
واطعت عاذلتى ولان قيادى

٢٠ - فلقد أروح على التجار مرجلا
مذلا بمالى لينا اجيادى

(المذل : كل من قلق بسره حتى يذيعه ، أو بمضجعه حتى يتحول عنه ، أو بماله حتى ينفقه) .

٢١ - ولقد لهوت وللشباب لذاذة
بسلافة مزجت بماء غواد

٢٢ - من خمر ذى نطف اغن منطق
وافى بها لدراهم الاسجاد

(ذى نطف ... الخ : بياع الخمر من العجم ، فى صوته غنة ، وفي وسطه منطقة ، اتي بالخمر ليبيعها بدراهم الاكاسرة . قال

الأصمعي : « دراهم الاسجاد كانت عليها صور يكفرون لها ويسجدون » .

٢٣ - يسعى بها ذو تومتين مشمر
قنات اناماله من الفرصاد

التومتان : اللؤلؤتان . والجمع : توم . وقد عنى به ساقيا من المجوس ، ومعنى قنات : احمرت . شبه حمرة لون الشراب بحمرة الفرصاد وهو صبغ أحمر .

٢٤ - والبيض تمشي كالبدور وكالدمى
ونواعم يمشين بالإرفاد

وصف مجلس الشرب بأنه اختلط بهم نساء كالبدور حسنا ، وكالدمى وهى الصور ، والنواعم ذوات النعمة ، والأرفاد : جمع رفد ، وهى العطية . وانما جعلهن كذلك اذ كن يعملن خلع الندامى فيلقينها عليهم .

والبيض يرمين القلوب كانها
ادحى بين صريمة وجماد

قصد الى تشبيه النساء ببيض النعام .

٢٥ - ينطقن معروفا وهن نواعم
بيض الوجوه رقيقة الأكباد

٢٦ - ينطقن مخفوض الحديث تهامسا
فبلغن ما حاولن غير تناد

قال الأصمعي : « يبلغن من الرجال ما أردن بأيسر سعى » .

ولما فرغ من ذكر ما تمتع به فى ماضيه من لهو بالنساء وبسكر ، مما يدل على أنه كان فتى غنيا مرفها ، ذكر ما حفل به

شبابه الذاهب وماضيه المنصرم من شجاعة واقدام ومنعة مكنته من نزول المراعى الخصبة التى تجرى بها المياه غير خائف ولا مترقب ، واتخاذ أماكن فى حماه لا ينازعه فيها أحد .

ولقد كان يستخدم فى أسفاره ورحلاته فرسا جيدا طويل القوائم ، لا يفوته الوحش ، أو ناقة شديدة سريعة .

ويبدو أن تذكر الشاعر للهوه ومتعته لم يكن كافيا ليتعزى به ويتصبر ، فجمع اليه الحديث عن الشجاعة والعز والمنعة ، محاولا أن يتسلى عما أصابه من ضعف فى قوته وبصره بعد أن أدركه الكبر ، فقال :

٢٧ - ولقد غدوت لعازب متناذر
أحوى المذانب مؤنق الرواد

أراد بالعازب كلأ ، والعازب : المتنحى ، وقوله : متناذر : أى يتناذره الناس للخوف منه ، والمذانب : جمع مذنب ، وهو مسيل ماء صغير من الحرة الى الوادى ، والأحوى : الذى اشتدت خضرته حتى يضرب الى السواد . والمؤنق : المعجب . والرواد : جمع رائد ، وهو الذى يرود البلاد فى طلب المرعى .

٢٨ - جادت سواريه وآزر نبته
نفأ من الصفراء والزباد

الصفراء والزباد : ضربان من العشب ، والنفأ : نبت .

٢٩ - بالجو فالأمرات حول مغامر
فبضارج فقصيمة الطراد

هذه مواضع مما اتخذه حمى تنقل فيه لعزه .

٣٠ - بمشمر عتد جهيز شده
قيد الأوابد والرهان جواد

المشمر : الفـرس الطويل القوائم · والعتـد : الذى عنـده عـدة للجرى ، والجهيز : الكثير · والأوابد : الوحش ·

٣١ ـ يشـوى لنـا الوحد المدل بحضره
بشـــريج بـين الشـــد والايـراد

الوحد : الثور أو الحمار الذى ليس مثـله شىء من جنسـه ، قـد فـاق قـرناءه أى هذا الفـرس من شـدة عـدوه يلحق أشد الوحش عدوا ، وقـوله : يشـوى لنـا كانه لمـا صـاده هو شـواه · والمدل : المفتخـر المبـاهى · والحضر : العدو · والشريج : الخليط ·

ولمـا وصف فرسـه انتقل الى وصف ناقتـه ، فقال :

٣٢ ـ ولقـد تـلوت الظاعنين بجسـرة
أجـد مهـاجر السـقاب جمـــاد

الأجـد : المؤنقـة الخلق · والسقاب : جمع سقب ، وهو ولد النـاقة سـاعة تلقيـه اذا كان ذكـرا · والأنثى حائل · وقوله : مهاجرة السقاب : أى ليست مما يلقح ، فهو أصلب لها ، والجماد القوية ·

٣٣ ـ عيـرانة سـد الربيـع خصـاصها
مـا يسـتبين بهـا مقيـل قـــراد

العيرانة : التى تشبه بالعيـر فى صـلابتها وسرعتها · سـد الربيـع خصـاصها : أسمنها بعد الهـزال فامتـلأت سمنا ، وأصـل الخصاص : الفـرج بين الشىء ·

وبعد هذا التفصيل فى ما حفـل به ماضى الشـاعر من مـآثر ، يعود الشـاعر الى حاضره الذى فقـد فيـه كل شىء بعد أن شـاخ وهـرم ، فلا يجد شـيئا مما كان له ، فالفنـاء طبيعـة الأشياء ، ومن شـأن الدهر اتبـاع الصـلاح بالفسـاد ، والخير بالشر ··

٣٤ - فـاذا ونلك لا مهـاه لذكـره
والدهـر يعقب صـالحا بفسـاد

وهكذا ينهى الشاعر قصيدته بذكر السبب والعلة فيما صوره في بدايتها من هم مقيم وحزن ملازم وأرق دائم ٠

* * *

٧ ـــ يزيـد بن خـــذاق

يزيد بن خـذاق شـاعر جـاهلى قـديم من شـعراء عبد القيس ، و (خذاق) فعال من قولهم : خـذق الطـائر وخـزق . اذا رمى بذرقه ، وكان يزيد هجـا النعمان بن المنذر ، فبعث اليهم النعمـان كتيبة يقـال لهـا (دوسر) فاستباحتهم ، وكان له أخ شـاعر اسمه سـويد ، وليزيد شعر فى الحماسـة والفخـر والهجاء .

وقصيدته فى رثاء النفس وردت فى المفضليات ، وتنسب للمـزق العبـدى أيضـا ، لكن نسبتها الى يزيد اقـوى بدليـل أن المفضـل يثبتها صراحة له ويضيف « وتروى للمزق »(٣١) ـ كما أن ابن قتيبـة نسبها اليـه فى الشعر والشعراء وقال : « قال أبو عمـرو بن العـلاء : أول شعر قيل فى ذم الدنيا قول يزيد بن خذاق .. »(٣٢) .

ودليـل آخـر من النص نفسـه ، وهو أن اسم الشـاعر ورد فى تلك القصيدة فى البيت الثالث منها . وهذه هى القصيدة :

١ ـ هل للفتى من بنات الدهر من واق
ام هل له من حمـام المـوت من راق(٣٣)

٢ ـ كأننى قد رمانى الدهر عن عـرض
بنافـذات بلا ريـش وافـــواق(٣٤)

---

(٣١) شرح المفضليات القسم الثانى ص ١٠٥٥ .
(٣٢) الشعر والشعراء ص ٢٤٤ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
(٣٣) بنات الدهر : أحداثه ومصائبه . والحمام : الدنو . والراقى : من الرقيـــة .
(٣٤) الأفواق : جمع فوق ، وهو مجرى الوتر من السهم .

٣ - اذ غمضونى وما غمضت من وسن
وقال قائلهم أودى ابن خذاق(٣٥)

٤ - ورجلونى وما رجلت من شعث
والبسونى ثيابا غير أخلاق(٣٦)

٥ - ورفعونى وقالوا أيما رجل
وادرجونى كأنى طى مخراق(٣٧)

٦ - وارسلوا فتية من خيرهم حسبا
ليسندوا فى ضريح الترب أطباقى(٣٨)

٧ - هون عليك ولا تولع باشفاق
فانما ما لنا للواحد باقى

لقد استهل الشاعر قصيدته باستفهام يؤدى معنى النفى ، ويوحى بالتعجب من أمر الدهر ومصائبه التى لا يدفعها عن المرء دافع ، ومن أمر الموت الذى لا تنفع معه رقية .

لقد أيقن الشاعر أن لا وقاية من بنات الدهر ، ولا رقية من حمام الموت . ويشكو ما رماه به الدهر من مصائب كالسهام النافذة ، وهل هناك أعظم من مصيبة الموت اذ يخرج الانسان من دنياه وأهله وماله وولده - رغم أنفه - ثم يفضى الى ما قدم من عمل ؟ .

---

(٣٥) الوسن : النوم . أودى : هلك .
(٣٦) الترجيل : تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه ، والشعث ضد ذلك ، غير أخلاق : أى غير ممزقة .
(٣٧) طى مخراق : هو المئزر الذى يلويه الصبيان ، يضرب بعضهم به بعضا .
(٣٨) أرسلوا فتية : يعنى ليحفروا قبره . الأطباق : المفاصل .

ويستحضر الشاعر ساعة موته ، ويتخيل أهله يتجمعون حوله ؛ يغمضون عينيه ، ويتكلمون بشأنه ، وينقل بعضهم الى بعض نبأ وفاته (أودى ابن خذاق) ٠

ثم يصلحون من هيئته ، فيرجلون شعره ، ويلبسونه كفنه ، ثم يرسلون فتية من افضلهم ليشقوا له لحده ، وينتظروه عند مثواه الأخير ، لينزلوه فيه برفق وتؤدة ٠

ويتخيل الشاعر جنازته ، وقد حمله الرجال على أعناقهم جثة هامدة لا حراك فيها ، مسلوب القوة والارادة ٠ كأنه المئزر المطوى الذى يضرب به الصبيان بعضهم بعضا ٠

والبيت الأخير محاولة للتعزى والتجلد فى مواجهة هذا المصير استنادا الى حقيقة ثابتة ، اهتدى اليها بعض الجاهليين ، وأكدها الاسلام ، وهى أن الله سبحانه وتعالى ، هو وحده الباقى الذى لا آخر لوجوده ، وأن الناس جميعا يموتون ، ثم الى ربهم يحشرون ٠

* * *

٨ — صخر بن عمرو بن الشريد

هو صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد ، من بنى سليم بن منصور ، من قيس عيلان ، كان فارسا شجاعا كثير الغزو ، أنضجته حروب الجاهلية وغاراتها ، ثم كان ضحية من ضحاياها .

كان له أخ اسمه معاوية قتله هاشم بن حرملة أحد بنى مرة بن غطفان ، فقال صخر : « والله ما بت منذ عقلت الا واترا أو موتورا ، أو طالبا أو مطلوبا ، حتى قتل معاوية فما ذقت طعم نوم بعده »(٣٩) وغزا واتريه ، فأخذ بثأر أخيه وشفا نفسه .

وفى يوم ذات الأثل غزا صخر بنى أسد بن خزيمة واكتسح ابلهم ، فأتى الصريخ بنى أسد ، فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأثل - (وهى موضع فى بلاد تيم الله بن ثعلبة) - فاقتتلوا قتالا شديدا ، فطعن ربيعة بن ثور الأسدى صخرا فى جنبه ، وظل صخر مريضا بسبب هذه الطعنة قريبا من الحول ، حتى مله أهله ، فسمع امرأة من جاراته تسأل سلمى امرأته : كيف بعلك ؟ قالت : لا حى فيرجى ولا ميت فينسى ، لقد لقينا منه الأمرين .

وكانت تسأل أمه كيف صخر ؟ فتقول أرجو له العافية ان شاء الله ، فقال فى ذلك(٤٠) :

أرى أم صخر لا تمل عيادتى

وملت سليمى مضجعى ومكانى

---

(٣٩) أنظر العقد الفريد : ج ٥ ص ١٦٤ .
(٤٠) المصدر نفسه ص ١٦٦ . والأغانى ج ١٣ ص ١٣١ ، ط. بيروت . والشعر والشعراء ص ٢١٤ - بيروت .

فأى امرىء ساوى بام حليلة
فلا عاش الا فى شقى وهوان
وما كنت اخشى ان اكون جنازة
عليك ومن يغتر بالحدثان
لعمرى قد نبهت من كان نائما
واسمعت من كانت له اذنان
اهم بامر الحزم لو استطيعه
وقد حيل بين العير والنزوان
فلو ان حيا فائت الموت فاته
اخو الحرب فوق القارح العدوان

والأبيات صرخة مريرة ، يطلقها رجل يموت جريحا على فراشه ، وقد سمع زوجه تتضجر منه ، وتتمنى أن تستريح بوفاته ، بعد أن ملت عيادته ، ويتذكر الشاعر ماضيه الذى كان فيه ملء السمع والبصر ويتحسر على ضعفه ومرضه ، ثم يتسلى بالشعر ، معلنا أنه لو كان أحد يفوت الموت لفاته الفرسان وفروا منه حينما يبدو لهم قريبا منهم ، لكن كم من فارس لم ينجه من الموت فرسه ، ولا رمحه ولا سيفه ؟! فالموت مصير كل حى ٠

ولما طال البلاء على صخر ، وقد نبات قطعة من جنبه مثل اليد فى موضع الطعنة ، قالوا له : لو قطعتها لرجونا أن تبرأ ٠ فقال : شأنكم ٠ فقطعوها فمات ٠

وفى الأغانى أنه قبل موته سمع الخنساء أخته تقول : كيف كان صبره ؟ فقال :

أجارتنا ان الخطوب تنوب ... على الناس كل المخطئين تصيب

فان تساليني هل صبرت فانني ... صبور على ريب الزمان صليب

كاني وشد اداني الى شفارهم ... من الصبر دامى الصفحتين ركوب

اجارتنا لست الغداة بظاعن ... ولكن مقيم ما اقام عسيب

(وعسيب : جبل بأرض بنى سليم الى جنب المدينة ، وقبر صخر هناك) (٤١) .

وصخر هو أخو الخنساء الذى أكثرت القول فى رثائه ، ولها فيه :

وقائلة والنعش قد فات خطوها ... لتدركه يا لهف نفسى على صخر

الا ثكلت أم الذين غدوا به ... الى القبر ماذا يحملون الى القبر

* * *

(٤١) الأغانى : ج ١٣ ص ١٣١ .

٩ - مخارق بن شهاب

هو مخارق بن شهاب ، من بنى مازن ، عاش زمن النعمان ابن المنذر ، وكان سيدا كريما (٤٢) ٠

قال مخارق يذكر قول الناس عنه اذا مات :

كم شامت بى أن هلكت وقائل
لا يبعدن مخارق بن شهاب (٤٣)

المشترى حسن الثناء بماله
والمالىء الجفنات للأصحاب

مأوى الأرامل والضريك اذا اشتكى
وثمال كل معيل قرضاب (٤٤)

وأخى اخاء قد غدا متقلدا
سيفا وراحلتى له وثيابى

والشاعر فى هذه الأبيات يعتز بذكره الطيب وحسن سيرته بعد موته ، فالناس سيذكرون له أنه كان ينفق ماله فى المكرمات ، ويملأ جفنات الطعام لأصحابه ، وأنه كان غياثا للفقراء ، سندا للضعفاء ، مأوى الأرامل ، شهما جوادا ، لا يبخل على ضيفه بشىء ٠

* * *

---

(٤٢) ترجمته ، والأبيات فى شعر بنى تميم فى العصر الجاهلى ، جمع وتحقيق الدكتور عبد الحميد محمود المعينى ص ٣٩٧ ٠ من منشورات نادى القصيم الأدبى - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ٠

(٤٣) لا يبعدن : دعاء بعدم البعد والموت ٠

(٤٤) الضريك : الفقير ٠ القرضاب : الذى لا شىء عنده ٠ والثمال : الغياث والعماد ٠

١٠ - عباد بن شداد

هو عباد بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مرة(٤٥) .

كان من المعمرين فى الجاهلية ذكر السجستانى أنه عاش مائة وثمانين عاما .

ومن شعره الذى قاله فى شيخوخته :

يا بؤس للشيخ عباد بن شداد
أضحى رهينة بيت بين أعواد
وتهزأ العرس منى ان رأت جسدى
أحدب لم تبق منه غير أجلاد
فان ترينى ضعيفا قاصرا عنقى
فقد أكعكع عنى عدوة العادى
وقد أفىء بأثواب الرئيس وقد
أغدو على سلهب للوحش صياد

وهى أبيات تفيض بالتحسر على الشباب والقوة ، بعد أن صار الرجل حبيس خيمته لا يخرج لحرب ولا لصيد كما كان يفعل .

وها هى ذى عرسه تهزأ منه ، من ضعف قوته ، ومن هيئة جسده الذى ضعف وانحنى صلبه ، ولم يبق منه غير الجلد المتجعد على العظام اليابسة . لكن الشاعر يلتمس فى ماضيه زادا يهون عليه ما صار اليه حاله ، فيذكر عرسه بأنه طالما دافع عن حماه وحمى قومه ، وصد الأعداء وأبعدهم ، وكم حارب وانتصر وقتل الرؤساء وأخذ سلبهم ، وقد كان يركب جواداً سريعا يصيد به الوحوش .

---

(٤٥) شعر بنى تميم ص ٢٤٣ .

وهل يكفى كل ذلك لينسى الشيخ بؤسه ؟! وهل يشفع له ماضيه عند عرسه ؟! ٠

يبدو أن هم الكبر اكبر من أن يهونه تذكر الشباب ، لكن هذا التذكر - على أية حال - هو المتنفس الوحيد الذى يلجأ اليه المعمرون ليهونوا على أنفسهم مرارة العجز والازدراء والاهمال ٠

وقد يضاعف تذكر الشباب والايام الخالية من الاحساس بآلام الكبر عندما يوازن الشاعر بين ماضيه وحاضره كما نجده فى قول الشاعر قشير بن عطى العبيدى (٤٦) :

١ - كفى حزنا الا أرد مطيتى
ولا أغدو مع القوم فى وفد

٢ - وان امرعت قريان نجد ونورت
من البقل لم أنظر بعينى فى نجد

٣ - وان اشال الاوغاد ما كان شأنهم
ولا أشهد الشورى لغى ولا رشد

٤ - وقد كنت أعطى السيف فى الروع حقه
حياء اذا جردت سيفى من الغمد

* * *

---

(٤٦) انظر شعراء بنى قشير فى الجاهلية والاسلام : القسم الثانى ص ١٤٢ تاليف الدكتور عبد العزيز محمد الفيصل - ط٠ عيسى الحلبى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ٠
وقوله : أمرعت : أعشبت ٠ القريان : جمع قرى وهو مجرى الماء فى الروض ٠ والنور : الزهر ٠ ونورت : كثر زهرها ٠ البقل من النبات : ما ليس بشجر دق ولا جل ٠ الوغد : الذليل الضعيف ٠ الغمد : جفن السيف ٠

١١ - عبد القيس بن خفاف

هو الشاعر عبد القيس بن خفاف البرجمى ، وكنيته أبو جبيل . كان شريفا شجاعا ، عاش زمن النعمان بن المنذر ، وهو من الشعراء الحكماء(٤٧) .

يبدو من شعره أنه كان حريصا على مكارم الأخلاق ، وتعد قصيدته فى وصية ابنه جبيل كنزا للنصائح القيمة والمثل العليا .

ويبدو أن تذكرة الموت كان أحد الدوافع التى أظهرت فى شعره هذا الاتجاه ، ففى قصيدته التى ضمنها وصاياه لابنه جبيل جاء البيتان الأخيران منها كانهما المبرر للالتزام بهذه الأخلاق التى يريد الشاعر من ابنه الحرص عليها ، وهما قوله :

ومؤمل قد قصرت إكفانه ومحاذر اكفانه لم تعزل
ومشيد دارا لينزل داره نزل القبور وداره لم ينزل

بل ان مطلع هذه القصيدة يدل على أن الاحساس بالموت كان احد الدوافع فى قولها .

لقد بدأ الشاعر القصيدة بنداء الديار الدارسة ، دار عبلة التى ما زال يذكرها على الرغم من طول العهد وتقادم الزمن ، لكن أوصاف الدار تنبىء بالخراب وانقطاع العمران :

يا دار عبلة من مشارق ماسل
درس الشؤون وعهدها لم ينجل

---

(٤٧) راجع شعر بنى تميم ص ٣٤٧ ، شرح المفضليات - القسم الثالث ص ١٢٨٩ .

فاستبدلت عفر الظباء كانما ابعارها فى الصيف حب الفلفل
تمشى النعام به خلاء حوله مشى النصارى حول بيت الهيكل

فدار عبلة غيرها البلى ، وفارقها أهلها ، وأمست خلاء من البشر حتى الحيوان الذى سكنها تبدو صورته فارغة من أوصاف الحياة النشيطة اللاهية التى يمكن أن نتصورها فى قطعان الظباء والوحش .

فالظباء التى سكنتها (عفر الظباء) نوع ضعيف العدو ، لونه لون التراب ، وصورة النعام التى تمشى بها توحى بالخشوع والفتور والضعف ، وتشبيه مشيها بمشى النصارى حول بيت الهيكل يدل على أن الرجل كان مشغولا بالتفكر فى أمر الآخرة . آخرته التى أوشكت أن تحين ، ولذا جاءت وصيته لابنه بعد هذه المقدمات ، وفى بدايتها اخبار صريح بذلك فى قوله :

أجبيل ان أباك كارب يومه
فاذا دعيت الى العظائم فافعل
اوصيك أيصاء امرىء لك ناصح
طبن بريب الدهر غير مغفل

ولعبد القيس قصيدة يشرح فيها منهجه فى الحياة ابان فترة من عمره وتبدو صفات العفة والكرم والشجاعة والنبل ملامح بارزة لهذا المنهج الذى أحبه الشاعر والتزمه وخالف به ومن أجله من لامه عليه ، وكان ذكره الموت كذلك هو المبرر عنده للالتزام بهذا المنهج ، يقول عبد القيس بن خفاف (٤٨) :

صحوت وزايلنى باطلى لعمر أبيك زيالا طويلا(٤٩)

---

(٤٨) انظر شرح المفضليات : القسم الثالث ص ١٢٩٤ .
(٤٩) زايل : فارق .

واصبحت لا نزقا باللحاء ولا للحوم صديقى اكولا(٥٠)
ولا سابقى كاشح نازح بذحل اذا ما طلبت الذحولا(٥١)
فاصبحت اعددت للنائبات عرضا بريئا وعضبا ثقيلا(٥٢)
ووقع لسان كحد السنان ورمحا طويل القناة عسولا(٥٣)
وسابغة من جياد الدروع تسمع للسيف فيها صليلا
كماء الغدير زفته الدبور يجر المدجج منها فضولا(٥٤)
فهذا عتادى وانى امرؤ أو الى الكريم وأجفو البخيلا
ونار دعوت بها الطارقين والليل ملق عليها سدولا
الى ملق بضيوف الشتاء اذا الريح هبت بليل بليلا(٥٥)
حليم ولكنه فى الحروب اذا ما تلظت تراه جهولا

ذلك هو منهجه الذى ارتضاه لنفسه ، أما دافعه ومبرره فيبدوان فى قوله :

راى انه جزر للمنون ولوعاش فى الدهرعمرا طويلا(٥٦)
فطاوع رائده فى الهوى وعاصى - على ما أحب - العذولا

ويقين عبد القيس بن خفاف بالموت وانه أمر لا مفر منه ولا مهرب لأحد يتجلى أيضا فى اخباره زوجه بانه هالك لا محالة ، وأنها

---

(٥٠) النزق : الطائش . اللحاء : المخاصمة .
(٥١) الكاشح : المعرض عداوة . الذحل : الثار والعداوة .
(٥٢) العضب : السيف القاطع .
(٥٣) الرمح العسول : اللين .
(٥٤) المدجج : الكامل السلاح .
(٥٥) الملق : الود واللطف .
(٥٦) جزر المنون : حان أوان موته .

ستبين منــه وتئيم مثــل كل النســاء اللائى يفقدن أزواجهن ، وفى نهيه اياها عن الجــزع والافــراط فى الحــزن ، اذ يقول :

افــاطم انى هـــــالك فتبيـنى ولا تجــزعى كل النســـاء يئيــم

ولا انبــــان ان وجهــــك شـــــانه

خمــــوش وان كان الحميــم حميــم

* * *

١٢ — دويد بن زيد بن نهد

ذكره ابن سلام فى طبقات فحول الشعراء ، فقال(٥٧) :

ومما يروى من قديم الشعر قول دويد بن زيد بن نهد ، قال حين حضره الموت :

اليوم يبنى لدويه بيته لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرنى واحدا كفيته يا رب نهب صالح حويته
ورب غيل حسن لويته ومعصم مخضب ثنيته

وقال أيضا :

القى على الدهر رجلا ويدا
والدهر ما أصلح يوما أفسدا
يصلحه اليوم ويفسده غدا

يشكو ما فعل به الدهر ، وفى نهاية حياته ينظر الى قبره الذى هو منزله الأخير وبيته ، ويصرح بعجزه عن مقاومة البلى وهو الشجاع الذى طالما هزم الأقران ، ولو أن الدهر كان يبلى لأبلاه ، ولو أنه كان رجلا لصرعه ، ولكن هيهات .

ويتذكر الشاعر أيام لهوه ومتعته وشبابه وفتوته ، أيام كان ينهب الغنائم الكثيرة ، ويجاوز الحراس ليستمتع بالنساء الجميلات . فاذا بالدهر يبدد كل قوة ويذهب كل نعمة ، ويفسد عليه أمره .

★ ★ ★

---

(٥٧) الطبقات ص ٣١ .

١٣ ـ افنــون التغلــبى

قــال المفضــل(٥٨) :

« بلغنــا أن رجــلا من بنى تغلب يقال له افنــون يلقب به ، واسمه صريم بن معشــر بن ذهــل بن تيم بن عمــرو بن مــالك بن حبيب بن عمــرو بن غنم بن تغلب لقى كاهنــا فى الجاهلية ، فســاله عن مــوته ، فقال : أما انك تمــوت بمكان يقــال له الاهة ، فمكث ما شــاء الله ، ثم انه ســافر فى ركب مع قــومه الى الشــام ، فاتوها ، ثم انصرفوا فضلوا الطــريق ، فاستقبلهم رجــل فســألوه عن طــريقهم ، فقــال : خــذوا كذا وكذا ، فاذا عنت لكم الاهــة ـ وهى قــارة بالسماوة ـ وضــح لكم الطــريق . فلما ســمع افنــون ذكــر الموضــع تطــير ، فلما أتوها نزل أصحابه ، وأبى أن ينزل معهم ، فبينما ناقتــه ترتعى عــرفجا لدغتهــا أفعى فى مشفرها فاحتكت بســاقه ، والحيــة متعلقــة بمشفرها فلدغتــه فى ساقه ، فقال لأخ معه : أحفر لى قبرا فانى ميت .

وقيــل انه كان راكبــا حمــارا ، فلما أبى النزول مع أصحابه وطال وقوفه ربض الحمــار فلدغتــه حيــة ، وقالوا نهش حمــاره ، وسقط ، فقال لأصــحابه : انى ميت ، فقالوا : ما عليــك بأس . قال : فلم ربض العير اذاً ، فارسلها مثــلا ، ثم قال يرثى نفســه :

١ ـ الا لست فى شىء فــروحا معــاويا

ولا المشــفقات اذ تبعــن الحــــوازيا

---

(٥٨) انظر شرح المفضليات ـ القسم الثانى ص ٩٣٨ ، وراجع أيضــا الشعر والشعراء ص ٢٦٨ .

قــوله : الا لست فى شىء : كلام يائس مما يرجى أو يحــذر • والشىء اســم لكل ما يجــوز أن يعلم أو يخبر عنــه ، فكأن المــراد : ليس اليــك من الأمــر شىء لمــا استسلم بما استشعره من قول الحازى (وهو الكاهن) وحكمه ، خاطبه بهذا منتظرا للكائنة •

ولا المشفقات اذ يتبعن الحوازيا ، المــراد : أنى لا أقــدر أن أدفــع عنى شــيئا كتب على ، وكذا النســاء المشفقات اذ تبعن الكواهن يســألنهم لا يغنين عمن أشفقن عليــه شيئا •

٢ ـ فلا خــير فيما يكــذب المــرء نفســه

وتقــــوا له للشىء يا ليــت ذا ليــــا

المعنى : أن حديث النفس ـ اذا حقت الحقائق ـ لا يغنى شــيئا ، صــدقا كان أو كذبا •

٣ ـ فطأ معرضــا أن الحتــوف كثيــرة

وانـــك لا تبــقى بمـــا لــك باقيــــا

يخــاطب صــاحبه أو نفســه ، يقول : أقــدم على ما يعــرض لك واركب ما يعطيــك ظهــره ، عالمــا أن أنــواع المــكاره كثيرة ، وقوله : انك لا تبقى بما لك باقيا : يريد أن المــال لا يحرسك ولا يدفع مكــروها عنك ، وهو بعــرض الزوال وان اجتهدت فى تبقيته •

٤ ـ لعمــرك ما يدرى امــرؤ كيف يتقى

اذا هــو لــم يجعــل لــه الله واقيــــا

٥ ـ كفي حزنا أن يرحــل الركب غدوة

وأصــــبح في أعــلي الاهــــة ثــاويا

والشــاعر فى هذه الأبيــات يعــرب عما أحســه من مــرارة الموت الذى انتظــره عندما أخبر بأنه بالموضع الذى أخبره به الكاهن .

ولو كان الموت بدار أهــله لخفت عليــه مشقة الأمــر ، لكن الركب سيتركه ويرحل ويظل هو ثاويا فى موضع موته وحده .

* * *

١٤ — المـرقـش الأكبـر

هو عمـرو بن سعد ، ويقال : عوف بن سعد ، بن مالك ، بن ضبيعة ابن قيس ، بن ثعلبـة ، وينتهى نسبه الى ربيعة بن نزار ٠

وهو شاعر جاهلى ، عاصر المهلهل ، وشهد حرب البسوس(٥٩) ٠

وسمى المـرقش لقـوله :

الـدار قفـر والرسـوم كمـا رقـش فى ظهـر الأديم قـلم(٦٠)

والمرقش أحد عشـاق العـرب المشهورين بذلك ، وصاحبته أسـماء بنت عـوف بن مالك ، وقد كانت ابنـة عمه التى ربى معهـا صغيرا ، خطبها من ابيهـا ، فقـال له : لن ازوجـك اياهـا حتى تكون رئيسـا وتأتى المـلوك ، فخـرج مرقش ، فاتى ملـكا من ملوك اليمن ممتدحا له ، فأنزله وأكـرمه ووصـله ، وفى فترة اقامته باليمن أصـابت عمـه سنة فأجدب ، وخطب اليـه رجـل من مـراد أسماء ، فزوجه منها ٠ فلما عـاد المرقش أشفق عليـه أخـوته وبنو عمـه من أن يخبروه بزواج ابنـة عمـه من المـرادى ، وأخـبروه أنهـا ماتت ، وذهبوا به الى قبـر قـد أخذوا قبل ذلك كبشا فأكلوا لحمه ووضعوا عظامه فى ذلك القبر ٠

وجعـل المرقش يزور هذا القبر معتقدا أن محبوبته ثاوية فيـه ، وبينمـا هو نائم عنـده ذات يوم اذ اختصم صـبيان من بنى أخيـه فى كعب معهما فقال أحدهما لصـاحبه : هذا كعب الكبش الذى ذبح ودفن ، وقيل للمرقش : انه قبر أسماء ، دفعه الى أبى ٠

---

(٥٩) أنظر شرح المفضيات : القسم الثانى ص ٨٠٩ ٠
(٦٠) الشعر والشعراء : ص ١١٩ ٠

فلما سمع المرقش ذلك من الصبى فعد مذعورا ، وما زال بالصبى حتى أعلمه الخبر ، فعمد الى بعير له وجمل معه مولاة وزوجا لها من قبيلة غفيلة كان أجيرا يرعى للمرقش ، وذهب يطلب المرادى زوج أسماء ويبحث عنه ، فمرض مرضا شديدا ، فتركه الغفيلى فى غار وانصرف الى أهله فأخبرهم أن المرقش مات ، فأخذوه وضربوه حتى أقر فقتلوه ، ويقال : أن أسماء وقفت على أمره فبعثت اليه ، فحمل اليها ، وكانت السباع قد أكلت أنفه وبعض لحمه ، فقال :

يا صاحبى تلوما لا تعجلا
أن الرحيل رهين الا تعذلا(٦١)

فلعل بطا كما يفرط سيئا
أو يسبق الاسراع سيبا مقبلا(٦٢)

يا راكبا اما عرضت فبلغا
انس بن سعد ان لقيت وحرملا(٦٣)

لله دركما ودر أبيكما
ان افلت الغفلى حتى يقتلا(٦٤)

من مبلغ الأقوام إن مرقشا
امسى على الأصحاب عبئا مثقلا

---

(٦١) تلوما : أى تلبثا .
(٦٢) يفرط : يقدم ، مأخوذ من الفارط ، وهو المتقدم قبل الماشية ـ يصلح الدلاء الارشية . ومعناه المراد هنا : يفوت وينحى ، فيقول : تريثا لعل التريث وعدم العجلة أن يفوت عنكما مكروها ، ولعل سيبا مقبلا يكون بعد عجلتكما فانتظاركما أوفق .
(٦٣) أنس وحرملة : أخواه .
(٦٤) تحضيض وحث على قتل الغفلى .

ذهب السباع بأنفه فتركنه ... أعشى عليه بالجبال وجيالا(٦٥)
وكانما ترد السباع بشلوه ... اذ غاب جمع بنى ضبيعة منهلا(٦٦)

فهذا شاعر قتله العشق ، والأبيات تصور نفسه الرقيقة المعذبة ، فى محنة شديدة ، عانى الشاعر فيها فقد المحبوبة ، وتخلى رفاق الطريق ، والغيبة عن أهله وداره ، والمرض الشديد الذى جعله على رفاق الطريق عبئا مثقلا ، مما دعاهم الى تركه وحيدا فى غار والانصراف عنه .

وتجتمع المصائب على الشاعر من كل جهة ، وتبلغ مأساته ذروتها بهذه السباع التى اجتمعت عليه ، تنهش لحمه وتعبث به ، وهو لا يملك قوة لدفعها ومنع نفسه منها .

وتتضمن الأبيات رسالة الى قومه بنى ضبيعة ، والى أخويه خاصة ألا يترك الغفلى الذى ترك الشاعر وحيدا فى الغار ، فريسة للمرض وللسباع ، ويحثهم على قتله ، لكنه يأمر صاحبيه اللذين وجه اليهما نداءه فى البيت الأول أن يتريثا ، ويبدو أنه كان يريد من أخويه ألا يتعجلا بقتل الغفلى قبل أن يعرفا منه مكان المرقش وخبره ، ليرحلا اليه ويدركوه .

* * *

---

(٦٥) الأعشى : هو من الضباع الذكرالعظيم ، والأعشى : لون الى السواد ، وهو الكثير الشعر أيضا . والجيال : الضبع ، ونصب عى أنه مفعول معه ، يريد : اجتمع عليه أعشى مع جيال فأكلاه .

(٦٦) شلوه : بقايا لحمه وعظامه . والمعنى : كأنما ترد السباع منهلا بورودها شلوه . راجع شرح المفضليات : القسم الثانى ص ٨٠٩ .

الفصل الثانى

رثـاء الآخـــرين

يرتبط شعر الرثاء بالموت ارتباطا وثيقـا ، اذ هو نتيجة للمـوت ومسبب عنه ، وقد ثبتت تقـاليد هذا الفن وتأصلت عند شعراء الجاهلية ، وتتمثـل هـذه التقـاليد فى التعبيـر عـن مشـاعر الحـزن والأسى ، والاحسـاس بعظم المصـيبة فى مـو تـالمـرثى ، ثم فى تعـداد مآثره وفضـائله التى كان يتصف بهـا فى حيـاته ، ثم محـاولة التعـزى عن فقده بتذكـر مصـائر من كانوا قبـله ، والالتفـات الى أن الموت مصـير جميـع البشـر ٠

ورثاء الأفـراد كثيـر جـدا فى الشـعر الجاهلى ، وقـد كانت الحـروب رافدا يمد فن الرثاء ويثريه ، ويجدد طـاقة الشعراء ، فما من حـروب أو غـارة الا ويسقط فيهـا العـديد من القتـلى ، فتنشد فيهم قصـائد الرثاء على ألسـنة اخـوتهم أو أصدقائهم أو بنى قبـائلهم من الشـعراء ٠

وفى هذا الفصـل حاولت جهدى أن أنتقى من الشعر الكثير الذى قيـل فى الرثاء ما يتفق ومنهج هذه الدراسـة وغرضها ، فاغفلت أكثـر شعر الرثاء الذى غطت فيـه شـخصية المـرثى على احسـاس الشـاعر بالموت بوصفه حدثا يزلزل الوجـدان ، ويلفت المـرء الى المصـير المحتوم الذى ينتظـره سـائر النـاس ، كما اغفلـت القصـائد التى استغرقهـا التعبير عن عاطفـة الشـاعر نحو المـرثى ، بتصـوير حـزنه عليه وألمـه لفقـده دون تركيز على فكـرة المـوت أو رؤية الشـاعر له واحسـاسه به ٠

فمثـلا قصيدة أوس بن حجـر فى رثاء فضـالة بنكلدة من الرثاء

الذى تظهر فيه شخصية المرثى ظهورا واضحا لكن فكرة الموت أو رأى الشاعر فيه أو احساسه به لا يظهر • يقول أوس بن حجر (١) :

أيتهـا النفس أجملى جزعا . ان الذى تحذرين قد وقعا
ان الذى جمع السماحة والنجدة والحزم والقوى جمعا
الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا
والمخلف المتلف المرزأ لم يمنع بضعف ولم يمت طبعا

وتمضى القصيدة على هذا النحو ، تعدد فضائل المرثى ومآثره التى كان يتصف بها فى حياته من سماحة ونجدة وشجاعة وكرم وحزم وذكاء •

ومن القصائد التى استغرقها التعبير عن عاطفة الحزن وتصوير ألم الفقد دون أن تركز على حقيقة الموت بالتأمل والاحساس ، قصيدة جليلة بنت مرة فى رثاء زوجها كليب الذى قتله جساس أخوها ، فلا شك أن عواطف الحزن والأسى والحيرة واليأس تملؤها وهى تصوير لمأساة امرأة ترى بيتها يتهدم بقتل زوجها ، وتلمح فى الأفق نذر الشر التى تنبىء عن وشك قيام حرب ضروس بين قبيلة زوجها وقبيلة أخيها التى اليها تنتمى ، وهى فى حزنها على زوجها القتيل وضيقها بفعلة أخيها ، لا تستطيع قتل عاطفة الأخوة عندها ، فهى مشفقة على أخيها المطلوب للثأر •

وفى خضم هذه العواطف الملتهبة غابت فكرة الموت عن القصيدة

---

(١) الرثاء فى الشعر العربى ص ٨٨ ، د• محمود حسن أبو ناجى ، ط ٢ دار الحياة - بيروت - ١٤٠٢ هـ •

ولم يكن بوسع الشاعرة ان تتامل حقيقته أو تعبر عن رايها فيه ونظرتها اليه ، تقول جليلة بنت مرة(٢) :

يا ابنة الأقوام ان لمت فلا
تعجلى باللوم حتى تسالى

فاذا انت تبينت الذى   يوجب اللوم فلومى واعذلى

ان تكن اخت امرىء ليمت على
شفق منها عليه فافعلى

جل عندى فعل جساس فيا
حسرتى عما انجلت أو تنجلى

فعل جساس على وجدى به
قاطع ظهرى ومدن اجلى

لو بعين فقئت عينى سوى
اختها فانفقات لم احفل

تحمل العين قذى العين كما
تحمل الأم اذى ما تفتلى

يا قتيلا قوض الدهر به   سقف بيتى جميعا من عل

هدم البيت الذى استحدثته   وانثنى فى هدم بيتى الأول

ورمانى فى قتله من كثب   رمية المصمى به المستأصل

يا نسائى دونكن اليوم قد   خصنى الدهر برزء معضل

خصنى قتل كيب بلظى   من ورائى ولظى مستقبل

---

(٢) الرثاء فى الشعر العربى : ص ٧٩ .

ليس من يبكى ليومين كمن   انما يبكى ليوم ينجلى

يشتفى المدرك بالثار وفى   دركى ثارى ثكل المثكل

ليته كان دمى فاحتلبوا   بدلا منه دما من أكحلى

اننى قاتلة مقتولة   ولعل الله أن يرتاح لى

فهذا النوع من الرثاء لا يعنينا فى هذه الدراسة لأن المقصود منها معالجة فكرة الموت ورؤية الجاهليين له واحساسهم به ٠ ومن الرثاء الذى يظهر فيه احساس الشاعر بالموت ، أو تبدو صورته ومشهده على نحو ينم عن احساس الشاعر به قول امرىء القيس فى رثاء بعض أجداده(٣) :

ملوك من بنى حجر بن عمرو   يساقون العشية يقتلونا

فلو فى يوم معركة أصيبوا   ولكن فى ديار بنى مرينا

ولم تغسل جماجمهم بغسل   ولكن فى الدماء مر ملينا

تظل الطير عاكفة عليهم   وتنتزع الحواجب والعيونا

ففى هذه الأبيات تصوير للموت فى عدة مشاهد مروعة هى فى حقيقتها شرائح من نفس الشاعر تجلى احساسه بهذا الحدث ، وهذه المشاهد تكون فى مجموعها صورة الموت الذى حل بأجداده ، فهم يساقون عشية الى القتل ، ويقتلون وتمرغ جماجمهم فى الرمال ولا تغسل ، ويتركون نهبا للطير الجارح ينزع حواجبهم وعيونهم ويعبث بأجسادهم التى لم توار التراب ٠

---

(٣) الرثاء فى الشعر العربى : ص ٩٧ ٠

وهذه المشـاهد مروعـة بلا شـك ، ترسم الموت فى صـورة رهيبـة ، وهو موت بطريقة تبعث الفـزع والأسى فى النفس ، وقد استقـرت هذه الصـورة فى نفس الشـاعر ، فظهـر احسـاسه بها فى تعبيره عنها ووصفه اياها ، ولقد أراد الشـاعر أن يجعـل هـذه المشـاهد حاضرة فى نفس السـامع كما كانت حاضرة عنده ، فاستخدم التعبيـر بالفعـل المضـارع (يسـاقون - يقتلون - تغسـل - تظـل - تنتزع) .

ومن المـراثى التى يظهـر فيها احسـاس الشـاعر بالموت كذلك مرثيـة كعب بن سعد الغنـوى فى أخيـه ، وكان الشـاعر قد خـرج بأخيه المغـوار الى البـادية لمـرض كان شـائعا فى المدينة خـاف على أخيـه منـه ، وقد قيـل له ان الوباء كان فى المدينـة ، والبـادية بريئة منه ، فخـرج اليها طالبـا نجـاة أخيه من الموت ، لكن المـوت أدرك أخـاه فى البـادية ، فقال كعب (٤) :

فخـبرتمانى أنمـا المـوت بالقـوى
فكيـف وهـــذى روضـــة وكثيب
ومــاء سماء كـان غيـر محمــــة
بـداوية تجـــرى عليــه جنـوب(٥)
ومنـزلة فى دار صــــدق وغبطـــة
وما افتـــال فى حـكم على طبيب(٦)

---

(٤) راجع طبقات فحول الشعراء لابن سلام : تحقيق محمود شاكر ، جـ ١ ص ٢١٢ .
(٥) أرض محمة : ذات حمى . والداوية : الفلاة المتباعدة التى تدوى فيها الرياح .
(٦) افتال : تحكم . وهذا منزل فى أرض بريئة من العيب ، لا طبيب بها يتحكم ويدعى فكيف اذن غاله الموت ؟ .

فلــو كانت المــوتى تبــاع اشــتريته
بما لــم تكن عنـــه النفـــوس تطيب

بعينـــى وكلتـــا يـــدى وقيـــل لـــى
هــو الغـــانم الجــذلان حــين يؤوب

وداع دعـــا يامن يجيب الى النـــــدى
فلــم يستجبـه عنـــد ذاك مجيـــب

فقلت ادع اخرى وارفع الصــوت دعــوة
لعـــل أبا المغـــوار منـــك قـــريب

يجـــبك كمــا قــد كان يفعـــــل انــه
مجيــب لأبــواب العـــلاء طــلوب

وهــذه القصيدة جـديرة ـ بحق ـ بما نالته من استحسان النقــاد وتقديرهم ، فقد سئل الأصمعى عن فحول الشعراء ، وكان كعب بن سعد الغنوى ضمن الشعراء الذين سئل عنهم : هل يعــد من الفحول ؟ فأجاب الأصمعى بقوله : « ليس من الفحول الا فى المرثيــة ، فانه ليس مثلهــا فى الدنيا » (٧) يعنى تلك القصيدة ٠ وبها عده ابن سلام من طبقة شعراء المراثى ٠ كما رواها أصـحاب المختارات ، الأصـمعى فى الأصمعيات ، والقرشى فى الجمهرة والقالى فى الأمالى ٠

ووصفها محمود شاكر بأنها من بارع كلام العرب ونبيله(٨) ٠

---

(٧) انظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب ـ د / احسان عباس ص ٥٢ ـ ط٠ الخامسة ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م٠
(٨) طبقات فحول الشعراء ص ٢١٢ هامش (٣) ٠

وفى الأبيات الأولى تعجب كعب من أمر الموت الذى تبع أخاه وأدركه بعد أن خرج من قرية الوباء التى أخبر أن الموت كامن بها . فكيف أدركه الموت فى هذه البادية النظيفة البعيدة عن الحمى والبريئة من الوباء والمرض ؟ !

فخبرتمانى انما الموت بالقرى   فكيف وهذى روضة وكثيب

والتعبير يوحى بالتحسر والحيرة والعجب من شأن الموت الذى لم تنفع معه الحيلة ، ولم ينج منه الخروج من القرية الى البادية .

ووقع المصيبة على الشاعر شديد ، لكن ادراكه لحقيقة الموت ، وأن الذى تختاره المنية لا يفتدى ولا يعود حاضر فى نفسه ، ولا يملك الشاعر فى مواجهة ذلك الا تمنى المستحيل باستخدام « لو » التى يمتنع جوابها لامتناع الشرط الذى علق عليه :

فلو كانت الموتى تباع اشتريته   بما لم تكن عنه النفوس تطيب

بعينى أو كلتا يدى وقيل لى :   هو الغانم الجذلان حين يؤوب

ثم يلتفت الشاعر الى ما تركه أخوه من فراغ ، فمن الذى سيجيب طالبى الغوث والنجدة والعطاء بعده ؟ .

وبسبب شدة الأمر على الشاعر وشدة تعلقه بأخيه يبدو وكأنه يرفض التصديق بموته ، فيجنح خياله ليتصور المستحيل ممكنا ، فيدعى أن أخاه سيجيب من يدعوه للبذل والعطاء جريا على عادته فى حياته :

وداع دعا يامن يجيب الى الندى   فلم يستجبه عند ذاك مجيب

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت دعوة

لعل ابا المغوار منك قريب

يجبك كما قد كان يفعل انه   مجيب لأبواب العلاء طلوب

وهـذا التردد بين الاعتراف بغياب المرثى ، والأمل الشـاحب فى امكان ارجاعه أو استجابته لنـداء دعاته ، وهـذا التارجح بين الحقيقة الواقعـة والأمل المستحيل ، انما هو نتيجـة لاحساس الشـاعر بفـداحة مصابه ، وذلك مرتبط بما فوجىء به الشاعر من اختـلاف النتيجـة مع المقدمة ، أعنى خروجـه بأخيه الى البادية لينجـو من الموت ، وادراك المـوت اياه على الرغم من ذلك ، وهو ما تعجب الشـاعر منـه فى أول القصـيدة ٠

ومن هـذا الشعر كذلك قصيدة سعدى بنت الشمردل فى رثاء أخيها أسـعد وفيها تقول :(٩)

أمـن الحـوادث والمنـون أروع ... وأبيـت ليـــلى كلـه لا أهجـع

أفليس فيـمن مضى لى عـــبرة ... هلكوا وقـد أيقنت أن لن يرجعـوا

والبيتان تصـوير لما تعانيـه الشاعرة من فزع وسـهد ، ومحاولتها التصبر والتعـزى بمن مضى من الناس الى طريق الموت ٠

ثم تثنى الشاعرة على أخيها بالكرم والنجـدة على عـادة الشعراء فى هـذا الفن ٠

ثم تعرب الشاعرة عن أمنيـة مستحيلة راودتها ، وهى افتـداؤها أخاها من الموت ، ولكن أنى يكون ذلك وقـد انطلق سهم المنيـة اليـه فصرعه ، وقد رأته بعينيها مجنـدلا فى دمائه ، وتركتـه موجعة حزينة تحمل خبر مقتل أخيها وما أشنعه من خبر :

فوددت لو قبلت بأســعد فــدية ... مما يضن بـه المصــاب المـوجع

غادرته يـوم الرصـاف مجنـدلا ... خـــبر لعمرك يوم ذلك اشـــنع

---

(٩) انظر الرثاء في الشعر العربي ص ٧٠

ومن هـذا الرثاء أيضا قصيدة المهلهل في رثاء أخيـه كليب وفيها يقول :(١٠)

اهـاج قـذاة عيـــنى الادكـــار هدوءا فالدموع لهـــا انحـدار

وصـار الليـل مشـــتملا علينـا كأن الليـل ليس لـــه نهـــار

وابكى والنجـــوم مطلعـــات كأن لم يحـــوها عنى النجـــار

دعـوتك يا كليب فـلم تجبـــنى وكيـف يجيبـنى البـلد القفــار

اجبنى يـا كلـيب خـــلاك ذم لقـــد فجعت بفارســـها نـزار

ودعوة الشاعر للميت وطلبـه منه أن يجيبه محاولة لاستبعاد مـا وقع ـ وكأنه لا يصدق موت أخيه ـ ثم لا يلبث الشاعر أن يصف حـــزنه وجزعـه على فقـد أخيه الذى تأكد له موته ، وأنه لن يجيبه ، وبعدأن يعدد مآثره يحاول أن يتعزى وأن يلتمس الصبر فيما عرفه من أمر الحياة وأمر المـوت ٠

ارى طول الحيـــاة وقـد تـولى كما قـد يسـلب الشىء المعـــار

ثم تلقاناه فى قصيدة المهلهل صـورة القبر الذى غيب فيـه أخـوه فقد سأل الشاعر عن مكانه وقصـده وسار اليه ، وعنده ندب أخاه :

سـألت الحـــى أيـن دفنتمـوه فقـــالوا لى بســـفح الحـى دار

فسرت اليـه من بـلدى حثيثـــا وطـار النـوم وامتنـع القـــرار

وحـادت ناقتى عن ظـل قـــبر ثـــوى فيـه المكارم والفخــار

ومن المراثى التى يظهر فيها احساس الشـاعر بالموت كذلك مرثيـة سلمة بن يزيد فى أخيه ، وفيها يقول :(١١)

---

(١٠) الرثاء فى الشعر العربى ص ٤٨

(١١) الرثاء في الشعر العربي ص ٧٣

اقول لنفسى فى الخـلاء الومهـا . لك الويل ما هذا التجلد والصبر

ألا تفهمـــين الخـــبر أن لسـت لاقيــــا

اخى اذا ما اتى من دون اكفـــانه القـــبر

وكنت اذا ياتى بـه بين ليـــــلة يظل على الاحشاء من بينه الجمر

فهـذا البـين قـد علمنا ايـــابه فكيف لبـين كان موعـده الحشر

وهون وجدى انى سـوف اغتدى على اثـره وان نفس العمـــــر

فـلا يبعـــدنك الله امــا تركتنــا حميدا واودى بعدك المجد والفخر

وقـد تضمنت هـذه الابيات معانى شريفة ، فالشاعر يلوم نفســه وينكر عليها التجلد ، ويخاطب نفسه مذكرا اياها بفداحة مصابه فى أخيه وقد كان لا يطيق الصبر على فراقه ليلة واحـدة ، فكيف يطيق فراقا ليس بعده اياب ، وليس منه رجعة ؟ !

والذى هون الامر على الشـاعر علمه أنه سيتبع أخـاه فى المصـير نفســـه .

ومن هـذا الشعر كذلك ما قالته ليلى بنت طريف فى رثاء أخيهـا فقد ظهر فى هـذا الرثاء احساسها بالموت ، وتحـدثت عن القبر ، مع التعبير عن عاطفة الحزن التى استبدت بها على فراقه فقالت :(١٢)

بتـل بناثا رسـم قـــبر كانـــه على جبـل فوق الجبـال منيـف

تضـمن جـودا حاتميـا ونائـلا وسـورة مقـدام وراى حصـــيف

الا قاتل الله الحشى كيـف اضمـرت فتى كان للمعـروف غـير عيـوف

فان لا تجبنى دمنـــة هى دونــه فقد طال تسليمى وطال وقـــوفى

---

(١٢) الرثاء في الشعر العربي ص ٧٦

ثم تتمنى امكان فدائه ، اذن لفـدته بالالوف من الابل - وهى فدية اقل مما ورد عنـد كعب بن سعد ، فقد ود أن يفـدى أخاه بعينه وكلتـا يديه ، وهى فدية اثمن من الوف الابل - بلاشك ٠

ثم تصف الشاعرة أخاها بانه كان شـجا لعـدوه ، وكان للضـعفاء ملجأ ، وانه كان حليف الندى فتقول :

فقدناه فقدان الربيـع فليتنـا   فدينـاه من دهمائنـا بالـوف

ومازال حتى ازهق المـوت نفسـه   شـجا لعـدو أو لجـا لضـعيف

حليف الندى ان عاش يرضى بـه النـدى

وان مـات لا يرضى النـدى بحليـف

ثم تخلـع الشـاعرة حزنها على اشـجار الخابور ، وتتعجب من ايراقه وقد كان جـديرا به الا يورق حـزنا على اخيها ، وتتصـور موته سقوطا للبدر وكسـوفا للشمس ، على نحو ما يفعـل شعراء الرومانسـية فى العصر الحديث ، تقول ليلى بنت طريف :

فيـا شـجر الخـابور مـالك مـورقـا

كانـك لـم تجـزع على ابـن طـريف

وللبـدر مـن بـين الـكواكب اذ هـوى

وللشـمس همـت بعـده بكسـوف

ثم تظهـر فى نهـاية القصيدة صـورة النعش يحمـله القـوم الى مثواه الأخير ، مشيعا ببكاء الرجال وعويل النسـاء :

ولليـث فـوق النعـش اذ يحمـلونه

الى حفـرة ملحـودة وسـقوف

بكـت تغلـب الغلبـاء يـوم وفـاته

وابـرز منهـا كـل ذات نصيف

وفى رثاء عمـرو بن حممـة الدوسى ، وهو أحـد من كانت العرب تتماسك اليـه ، قال حاطب بن قيس(١٣) :

سـلام على القبـر الذى ضم أعظمـا
تحـوم المعـالى حـوله فتسـلم

سـلام عليـه كلمـا ذر شـارق
وما اسـتقطع من دجى الليـل مظلم

فيا قبـر عمـرو جـاد ارضـا تعطفت
عليـك ملث دائم القطـر مـرزم

تضمنت جسـما طـاب حيـا وميتـا
فانـت بمـا ضـمنت فى الأرض معـلم

فـلو نطقـت أرض لقـال ترابهـا
الى قبـر عمـرو الأزد حـل التـكرم

فـلا يبعـدنك الله حيـا وميتـا
فقـد كنت نـور الخطب والخطب مظلم

وصـورة القبر هى التى ملأت هذه الأبيـات ، فالشـاعر يحييـه ويسـلم عليـه ، ويصـور المعـالى تحوم حوله وتحيط به ، ويسـتديم عليـه التحية كلما ذر شارق ، ويدعو له بالسقيا الدائمة .

والقبر فى ذاته لا قيمـة له ، لكن ما تضمنه القبر هو المقصود ، فقد ضم ثراه رجـلا طيبا ، وأصبحت بقعته معلمـا من معـالم الأرض ، ولو أن الأرض قدر لها أن تنطق لشهدت بالفضل لهذه البقعـة وشرفها على

---

(١٣) الرثاء في الشعر العربي : ص ٩٣ .

غيرها . ثم يدعو الشـاعر للمرثى بعدم البعـد ، وأن يبقى مذكوراً بعد موته كما كان مشـهورا فى حيـاته ، فقد كان نـورا يضىء المظلمـات ويكشف الكـربات .

وتركـيز الشـاعر على صـورة القبر دليـل على قـوة احسـاسه بالموت ، وهو ما قصدت الى ابرازه هذه الدراسـة فيما اختارته من نماذج شـعر الرثاء .

الفصل الثالث

الحكمة

شعر الحكمة هو مستودع الأفكار وخلاصة الآراء فى قضايا الوجود والحياة والموت ، صاغها الشاعر الجاهلى ، صادرا عن نفسه وعقله ، معبرا عن قيم عصره وبيئته وقومه ٠

والموت قضية شغلت الانسان فى كل عصر وبيئة ، فليس شىء أخطر على الانسان من الموت ٠ هذا الحدث الذى يطفىء مصباح الحياة ، ويبدو الآمال ، وينتزع الانسان من أهله وماله ودنياه ٠

وفى طبيعة البشر حب الحياة والتشبث بالعيش ٠ يود أحدهم لو يعمر الف سنة ٠ والذين يكرهون طول المكث فى الدنيا لا يكرهونه ذاته ، وانما يكرهون ما يصاحبه من مرض وعجز ، ولو كان مع البقاء سلامة لما كره أحد طول العمر ٠

لهذا أخذ الموت مكانا مميزا بين القضايا الكبرى التى تحدث عنها الحكماء وتأملها الشعراء ٠

ويبدو الموت فى شعر الحكمة عند الجاهليين أبرز القضايا التى تناولوها مما يدل على زيادة انشغالهم به عن غيره(١) ٠

---

(١) راجع الوصايا والحكم فى الأدب الجاهلى : رسالة ماجستير ، اعداد محمد عبد الجواد فاضل ـ مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة ٠

وفى حديثهم عن الموت تنــاولوه من عدة جوانب ، ورصدوا مجموعة من الظواهر المتعلقــة بـه ، فتحدثوا عن حتميته واتيــانه على جميــع الخلائق ، وعن تفاوت الآجال ، وعن كراهية الانســان للموت • وهم فى فى كل ذلك يصــورون الموت طالبــا والانســان مطــلوبه ، أو صــائدا يلقى شباكه على النــاس ، فيصيب منهم ما يريد • لأن سهمه لا يخطىء وقصــده لا يخيب •

وقد أدرك الجاهليون أن هذا القــدر ـ أعنى الموت ـ ماض على النــاس جميعــا ، وحاول بعضهم أن يعتبر بمن سبقه الى هذا المصــير المحتوم على نحو ما قال قس بن ساعدة(٢) :

فى الذاهبـــــين الأوليــ ـــن من القــرون لنا بصــائر
لمــا رأيــت مــــــواردا للمــوت ليــس لهــا مصــادر
ورأيــت قـــــومى نحــوها يمضى الأصــاغر والأكــابر
أيقنــت أنــى لا محــــالة حيــث صــار القــوم صــائر

وهذا امــرؤ القيس فى لحظــة تأمل يدرك أن المنــايا آتيــة على ســائر النــاس ، لا تفــرق بين عــاقل ومجنــون أو كيس وأحمــق ،

تلــك المنــايا فمــا يبقـــين مــن احــد
يكفتــن حمــقى وما يبقــين اكيــاســا

ويرى طــرفة بن العبــد الموت مصاحبــا للانســان ، ملازما ايــاه فى سفره واقــامته ، منفــردا ومع اقــرانه ، يقبض المــرء على أى حــال لأن الموت معــه حيثما يكون • يقول طــرفة(٣) :

---

(٢) راجع الأغانى : جـ ١٤ ص ٤٠ ـ بيروت •
(٣) ديوان طــرفة تحقيق د• على الجندى ص ٢٣٧ ـ مكتبة الأنجلو المصرية •

مـن كـان فى سـفر فالمـوت صـاحبه
أو كـان فى حضـر فالمـوت يأتيـه

وان مضى خمسـة فالمـوت سـادسهم
وان مضى واحـد فالمـوت ثانيـه

ويفطن بشـر بن أبى خـازم الى أن سـلامة المـرء لا تدوم ، وان دامت فانها لا تحول بينه وبين الموت ، فيقول :

وكـل نفـس امـرىء وان سـلمت
يـوما ستحسـو لميتـة جـرعا(٤)

كما أن طول العمـر والبقـاء فى الدنيـا لا يشـفع للمـرء عنـد المـوت ، فكل معمـر ينتظـر منيتـه ليفـارق الدنيـا . هـذا ما عبـر عنـه أمية بن أبى الصلت فى قـوله :

فـكل معمـر لابـد يومـا وذى دنيـا يصـير الى زوال

ويفـنى بعـد جـدته ويبـلى سوى الباقى المقدس ذى الجلال(٥)

ومن وحى البيئـة الجاهلية التى كثر فيها القتـل - حـربا أو غارة أو غيـلة أو ثارا - الى حـد يشـبه الفوضى ، أتى تشـبيه زهيـر بن أبى سلمى للمنـايا بالنـاقة العشـواء التى تخبط على غير نسـق أو ترتيب ، وتضرب دون حـكمة أو نظـام ، فمن أصـابته هلك ومن أخطـأته نجا ، وذلك فى قـوله :

رايت المنـايا خبـط عشـواء مـن تصـب
تمتـه ومـن تخطىء يعمـر فيهـرم(٦)

---

(٤) ديوان بشر : تحقيق د. عزه حسن ص ١٢٤ - دمشق ١٩٦٠ .
(٥) ديوان أمية : ص ٤٩ - المكتبة الأهلية - بيروت .
(٦) ديوان زهير : ص ٨٦ - دار صادر - بيروت .

لكن زهيرا يدرك أن هـذه النجـاة الى أجـل ، فالموت هو المصـير المحتـوم لكل حى ، لا يستطيع أحـد الهـرب منـه أو الفـرار ، حتى لو رام الصعود الى السـماء .

ومـن هـاب أسـباب المنـايا ينلنـه

وان يـرق أسـباب السـماء بسـلم(٧)

والشعراء الجاهليون يجمعون على القـول بحتميـة الموت واتيـانه على جميـع الخـلائق ، وأنه يأتى بغتـة من غير موعد . وهذه الحقائق أدركوها من رؤيتهم لحال الموت مع الناس .

يقول عبيد بن الأبرص(٨) :

وللمـرء أيـام تعـد وقـد رعـت

حبـال المنـايا للفـتى كـل مرصـد

منيتـه تجـرى لـوقت وقصـره

ملاقـاتها يومـا على غيـر موعـد

فمن لـم يمـت فى اليـوم لابـد أنه

سيعلقـه حبـل المنيـة من غـد

فقـل للذى يبغـى خـلاف الذى مضـى

تهيـا لأخـرى مثلهـا فـكان قـد

فـانا ومـن قـد بـاد منـا لـكالذى

يـروح وكالقـاضى البتـات ليغتـدى

وتبدو رؤية عبيـد صـائبة متفقـة والحق فى تلك الأبيـات ، فالمرء

---

(٧) السـابق .

(٨) ديوان عبيد تحقيق وشرح د. حسين نصار ص ٥٦ - الحلبى .

أيامه في الدنيا معدودة ، والموت يتربص به انتهاء الأجل الذى لا يعرف وقته غير خالق الموت والحياة ٠

والذى لا يموت اليوم سيموت غدا ، وما أقرب اليوم من الغد فكل آت قريب ، وعلى هذا فما أقرب الأحياء من الأموات ٠

وقد صاغ عبيد بيته الأخير فى صورة مستوحاة من بيئته اذ شبه الموتى والأحياء بقوم سافر بعضهم آخر النهار أولئك الذين سبقوا الى القبور ٠ والبعض الآخر يحزم أمتعته استعدادا للسفر فى الصباح ٠ أولئك الذين ينتظرون أجلهم وهو آت لا ريب ٠

حتى الفرسان الذين يخوضون غمار الحرب لا يبالون ، شغلتهم حقيقة الموت ، وحيرتهم حكمته ، عندما رأوه يخطف طفلا من مهده الآمن من كل خطر ، المحوط من أهله بالرعاية والحفظ ، ويمهل شيخا يعرض نفسه للمهالك ويشارك فى الحرب ٠ ها هو ذا عنترة ابن شداد يعبر عن ذلك فى قوله (٩) :

يخوض الشيخ فى بحر المنايا
ويرجع سالما والبحر طام
ويأتى الموت طفلا فى مهود
ويلقى حتفه قبل الفطام

ولقد كان ذلك خليقا بأن يلقى فى قلوب الفرسان كثيرا من الشجاعة ، فما دام الموت غير مرتبط بعمر ولا خطر ولا أمن ، فلماذا يخاف الفارس من الحرب ، ولماذا يرهب الموت فيها ، فقد يترك

---

(٩) ديوانه : ص ١٨٠ ٠

الموت الرجل المحارب ويأتى على الطفل الصغير ، فالعبرة اذن بما قضاه الله وقدره ، ولهذا قال عنترة بن شداد أيضا :

يا عبل أين من المنية مهربى
ان كان ربى فى السماء قضاها(١٠)

وهذا الذى عرفه الجاهليون من أمر الموت اهتدوا اليه بالفطرة وبالتجربة والمشاهدة والأخبار ٠

وكل الناس فى سائر البيئات والعصور يعرفون تلك الحقائق ، وعندما يصاحب هذه المعرفة ايمان قوى بالبعث والآخرة ويقين بالحساب والجزاء يندفع الانسان للعمل الصالح طلبا لثواب الله وجناته ، ويصبح الموت عاملا من عوامل زيادة الخير فى الحياة ٠

والواقع أن الحياة الجاهلية كانت تفتقد الايمان القوى واليقين الثابت بالآخرة ، باستثناء ومضات خافتة كانت تضىء قلوب المتحنفين المستمسكين ببقايا دين ابراهيم - عليه السلام - ولم يكن عددهم كبيرا بين العرب ، ولا تقوم الاشارات التى وردت فى شعر أمية ابن أبى الصلت وغيره من الشعراء الى اليوم الآخر والحساب دليلا على نقض هذا القول ، لأن هذه الاشارات لا تدل على الايمان الراسخ واليقين الثابت ، فأمية بن أبى الصلت قال عنه الرسول ﷺ « آمن لسانه وكفر قلبه » وغيره كان وثنيا يعبد الأصنام ، وهم وان لم يفردوها بالعبادة ، قدسوها اعتقادا بأنها تقربهم الى الله زلفى ، وكل ذلك تخبط ، تنفى شواهده عن الجاهليين فى عمومهم أنهم كانوا يؤمنون يقينا بالبعث والجزاء ٠

ولهذا اندفع الفعل الجاهلى فى الاتجاه الآخر نتيجة لضعف الايمان بالله واليوم الآخر أو انعدامه ، مع التحقق من فناء الدنيا

---

(١٠) ديوانه ص ١٠١ ٠

وانقضاء الاعمار - اعنى تيار الفوز بالدنيا على اى وجه ومن أى طريق - وغالبا ما كان الشر هو الطريق الذى سلكه الجاهليون لادراك غايتهم من الدنيا ٠

ولقد اتخذوا من الموت ذريعة للافراط فى التمتع بما أتيح لهم من ملذات الحياة ، التى تمثلت فى استمتاعهم بالخمر وبالنساء ، واشباع جانب حب البطولة والفخر بها عن طريق الحروب ٠

واقترنت أفكارهم عن الموت ودلائل انكارهم للبعث بحديثهم عن هذه المتع التى أرادوا انتهابها قبل أن تفوتهم فرصة الحياة ٠ ولعل أوضح مثال على ذلك ما جاء فى معلقة طرفة بن العبد اذ يقول :

الا أيهذا اللائمى أحضر الوغى
وأن اشهد اللذات هل انت مخلدى

فان كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى ابادرها بما ملكت يدى

فلولا ثلاث هن من لذة الفتى
وجدك لم احفل متى قام عودى

فمنهن سبقى العاذلات بشربة
كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكرى اذا نادى المضاف مجنبا
كسيد الغضا نبهته المتورد

وتقصير يوم الدجن ، والدجن معجب
ببهكنة تحت الطراف المعمد

فذرني أروي هامتي في حياتها
ستعلم ان متنا غدا أينا الصدي

كـريم يـروى نفســه فى حيــاته

مخــافة شـرب فى الممـات مصرد

لعمــرك ان المـوت مـا اخطـا الفتى

لكالطـول المـرخى وثنيـاه باليـد

متى مـا يشـا يومــا يقـده لحتفــه

ومـن يك فى حبـل المنيـة ينقـد

ارى قبـر نحــام بخيـل بمــاله

كقبـر غـوى فى البطـالة مفسـد

تـرى حثـوتين مـن تـراب عليهمــا

صــفائح صـم من صـفيح منضـد

أرى المـوت يعتـام الكـرام ويصطفى

عقيـلة مـال الفـاحش المتشـدد

أرى المـوت اعــداد النفـوس ولا أرى

بعيدا غدا ٠ ما اقرب اليوم من غد

أرى العـيش كنـزا ناقصـا كل ليـلة

ومـا تنقص الأيـام والدهـر ينفد(١١)

والشـاعر فى هذه الأبيـات يدفـع لوم لائميه الذين أخذوا عليـه افـراطه فى شهود اللذات وامتـاع نفسـه على المذهب الذى يراه ٠

---

(١١) راجع شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ٤٨ وما بعدها ٠ والتبريزى ص ١٠٧ وشرح القصائد المشهورات لابن النحاس ص ٨٠ ٠

قوله : وحدك : قسم ، والجد : الحظ ٠ عودى : جمع عائد وهو الزائر ٠ النحام : الحريص البخيل ٠ الحثوة : الكومة من التراب ؛ يعتام : يختار ٠

والسؤال المعجز الذى القاه الشاعر على هؤلاء اللوم : هل أنت مخلدى ؟ هل تضمن لى الخلود فى الدنيا حتى اقتصد فى امتاع نفسى واشباعها من اللذا تالتى تريدها ؟

ان كنت أيها اللائم لا تستطيع تخليدى فىالدنيا - ولا أحد بالطبع يستطيع ذلك للشاعر ولا لغيره - فدعنى أتحدى الموت والفناء بانتهاب اللذة المتاحة من الدنيا - هكذا يتصور الشاعر أنه بانتهاب اللذة والاستمتاع بالحياة قدر استطاعته يبادر الموت ويغالبه ٠

ويعلن الشاعر أن حرصه على الحياة وكراهيته للموت انما هما من أجل أمور ثلاثة يجد فيها سعادته ، وتلك الأمور هى : (شرب الخمر الجيدة المعتقة التى يعلوها الزبد عندما يضاف اليها الماء ، والكر للدفاع عن الجار على حصان قوى نشيط ، والاستمتاع بالمرأة الممتلئة الجميلة) ٠

وفى وصف طرفة لهذه اللذات حاول الشاعر أن يعرضها فى جوها الذى يروقه ويعجبه ، ويبلغ بها الدرجة العليا فى اشباع حاجته وارواء ظمئه لما توفر لها من أسباب الفتنة ودواعى الجذب للشاعر وأمثاله ٠

فليس المقصود هو ادراك اللذات الثلاث على أى وجه ، بل ادراكها على نحو مخصوص يجعلها فى النمط الممتاز الذى يعجب الشاعر ويمتعه٠

وانظر الى صورة الشرب تجده شربا غير عادى ، بل هو شرب فيه سبق للعاذلات بما يوحى هذا السبق من تجاذب بينه وبينهن ، وانى لاتصور هؤلاء العاذلات ، يداعبن الشاعر بعذله على الشرب ، فليس العذل من باب الجد والنصيحة ، بل هو ضرب من اللهو والتظرف والدلال ٠ أما الخمر التي يشربها فهي كميت محمرة اللون لأصالتها

وقدمها ، يضيف اليهـا بعض المـاء فيعلوها الزبد · وكل هذه الأوصـاف التى عددها الشاعر تضفى على صـورة هذه اللذة مـزيدا من ايحـاءات جو المتعـة الذى أسر لب الشـاعر ، وجعله يحب الحياة ويكره الموت ·

وانظـر الى صـورة كـره التى وصفها وفرسـه التى نعتها تجدها كذلك فى المعـرض الذى يجعلها فى النمط الراقى لتحقيق المتعـة ، فهو يخف للنداء ويلبى طلب المستغيث غير وان ولا كسـول ، على فـرس ·

أما متعتـه الثالثة ، فقد استجمع لهـا الشـاعر أطـراف الوصف الموحى ببلوغها أرقى درجة من الامتـاع لتكون ملائمة لمزاجـه ، جديرة بأن يحب الحيـاة من أجلها ، فهو يلهو بالمـرأة الجميـلة المتلثة تحت الخبـاء المـدد ، يقصـر بهذا اللهو يوم الشـتاء المطـر الذى يتعجب النـاس من شـدة مطـره وغـزارته ، ويحتمى من برده وغيمه ومطره بخلوته اليهـا تحت الخبـاء ·

ولقد كانت الخمـر والمـرأة من أولى المتـع التى حـرص الجاهليون على انتهابها ، فقد روى الجاحظ :

أن امـرأ القيس سـئل : ما أطيب عيش الدنيـا ؟ فقال : بيضـاء وعبـوبة ، بالطيب مشبوبة ، باللحم مكـروبة ·

وسـئل الأعشى عن ذلك فقال : صهباء صـافية ، تمزجها سـاقية من صـوب غـادية (١٢) :

وبعد ما وصف طـرفة لذاته التى لا يابه بالحيـاة الا من أجلهـا طلب من لائمه أن يخلى بينـه وبين تلك اللذات ، ليروى نفسـه منهـا

---

(١٢) طرفة بن العبد – حياته وشعره : ص ٤٦ – د· محمد علي الهاشمي عالم الكتب – بيروت ·

قبـل أن يموت فالذى ينعم بالدنيـا هو الكـريم الظـافر ، والذى يحرم نفسـه من متعها هو المحـروم الذى لن يزيل حـرمانه شىء لأنه لا متعـة بعـد المـوت ٠

هكذا ظن طـرفة ٠ والموت الذى أراد الشـاعر التغلب عليـه بانتهاب الحيـاة ، وسبقه الى لذاتها ، رآه مثـل الحبـل - ممدودا على ابن آدم - يربطه كما تربط الدابة ، وترسـل فى مرعـاها ، وصـاحبها ممسـك بحبلها يردها به عندما يشـاء ، فكذلك أمـر المنيـة والنـاس ، يقـاد المـرء لحتفه عندما يشـاء مقـدر المـوت ، ومن يك فى حبـل المنيـة لا يستطيع منـه فكاكا ٠

ثم استحضر الشـاعر صـورة القبر فـرآه حفـرة توارى الانسـان بعد موته ، لا فـرق بين غنى وفقـير ، أو مسرف وبخيـل ، فالقبر كل قبر ليس الا كـومة من تراب عليهـا بعض صفائح صم تضم جسم الانسان ولا يظهـر عليهـا أثر نعيم أو عذاب ، وكأن الشـاعر بهذا الوصف يريد أن يدلل على صواب مذهبـه فى امتـاع نفسـه واروائها من لذات الدنيا قبل أن تذهب الى هذا المصـير ٠

وهـل يحـرم نفسـه من ملذات الحيـاة وهو يرى المـوت يهلك النـاس الكريم منهم والبخيل على سـواء ؟!

ولقد أدرك الشـاعر يقينـا أن الموت أعداد النفوس فلا مهـرب منه ولا فـرار ، ومن لم يمت اليـوم يمت غـدا ، وما أقرب هذا الغد ٠ كما أدرك أن كل ليـلة تفـوت تنقص من كنـز عيشـه ورصـيد عمـره حتى ينتهى ذلك الكنز - أفيضيعه فى الحـرمان من أجـل ارضـاء لائمـه الذى لا يملك دفـع الموت عنه ولا يستطيع تخليده ؟ ٠

هذه رؤية طـرفة التى قدمها في صـورة جدلية ، تكشف عن عقيدته في أمـر الموت والحيـاة ٠

وتكـرار الفعـل (أرى) فى الأبيات الأخيرة :

أرى قبـر نحـام ... - تـرى حثـوتين مـن تـراب ... -

أرى الموت يعتـام الكـرام ... - أرى العيـش كنـــزا ...

يؤكد انشـغال الشـاعر بأمـر الموت ، وطول نظـره اليـه وتفكيره فيـه ، كما يدل تعبيـره بهـذا الفعـل (أرى) على أن عقيـــدته فى الموت وأفـكاره عنـه لم يأخذها عن دين ولم ينقلها عن أحد ، ولم يرثها عن نحـلة أو مذهب ، فهى مبنيـة على رؤيتـه وخبرته ، وتلك الرؤية لم تدرك من أمـر المـوت والقبـر الا ما يظهـر منهما للعين ، وان كانت العين صـالحة لـمد الشـاعر بهذه الصـورة الظـاهرية ، فانها غير صالحة لمعـرفة كنـه وحقيقـة ما يحدث بعد المـوت ، فذلك عـالم آخـر لا تدرك حقـائقه بالحـواس .

ولا أظن أن طـرفة بن العبد فى هـذه الرؤية كان شـاذا ، فلقـد كانت هذه عقيدة أكثر الجاهليين .

وبعد أن فـرغ طـرفة من بسط عقيدته فى أمـر الموت ، تحدث عن علاقته بابن عمـه مالك ، ثم فخـر بنفسـه وعدد خصـاله ومآثره ، وفى نهـاية القصيدة طلب من ابنـة أخيه معبد أن تنعيـه عند موته بما هو أهله وأن تبكى عليـه وتشق الجيب من أجله .

فـان مـت فانعيـنى بمـا أنا أهــــله

وشـقي علي الجيـب يا ابنـة معبـد

وفخـر الشـاعر بنفسـه هنـا وطلبـه من ابنـة أخيـه أن تبكيـه دليـل على تعلقـه بالحيـاة ، وحديثه عن الموت على النحـو الذى ذكر دليـل على حضـوره فى ذهنـه وادراكه أن الموت مصـير جميع البشر ، مع انكاره للحيـاة بعده أوشـكه فى ذلك ، ولقد كان مصـيبا فى ادراكه ، مخطئـا فى شـكه وانكاره .

الباب الثالث

السمات الموضوعية والفنية لشعر الموت

الفصل الأول : السمات الموضوعية ٠

الفصل الثاني : السمات الفنية ٠

الفصل الأول

السمات الموضوعية

تشيع فى شعر الموت عدة ظواهر تتعلق بالفكرة أو الموضوع ، وهى تمثل سمات يتصف بها هذا الشعر ، وهذه السمات هى :

أولا : استعادة الماضى :

فى لحظات الضعف التى يواجه فيها الشاعر الموت أسيرا أو جريحا أو مريضا أو شيخا ، يتذكر الماضى وما حفل به من أوقات السعادة ومظاهر القوة ٠

وتطالعنا هذه السمة بوضوح فى شعر رثاء النفس ورثاء الآخرين وغالبا ما تكون فى اطار من الموازنة بين حالتى القوة والضعف ، والماضى والحاضر ، والحياة والموت ، فى تعجب وتحسر شديدين ٠ وذلك كما فى قول امرىء القيس :

كأنى لم اركب جوادا للذة
ولم اتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبا الزق الروى ولم اقل
لخيلى كرى كرة بعد أجفال

وقوله :

الم انض المطى بكل خرق
امق الطول لماع السراب
واركب فى اللهام المجرحتى
انال مآكل القحم الرغاب

وكما فى قــول عبــد يغــوث :

وقــد كنت نحــار الجــزور ومعمل المطى
وامــضى حيـث لا حــى ماضــــيا

واعقــر للشرب الكــرام مطيتى   واصــدع بـين القينتـين ردائيــا

كانى لم اركب جوادا ولم اقل   لخيــلى كــرى نفسى عن رجـــاليا

ولم اسبأ الزق الروى ولم اقــل   لأيســار صــدق اعظموا ضوء ناريا

وكما فى قـــول عمـــرو بن قميئــة :

واذا ما رآنى النــاس قــالوا : الـم تكن
جليـــدا حـــديث الســـن غيــر كهــام

ونجد مثل ذلك فى قول الأسود بن يعفر :

ولقــد لهــوت وللشــباب لــذاذة   بســلافة مــزجت بمــاء غـــــواد

ولقــد غــدوت لعـــازب متنــاذر   أحــوى المذانب مــؤنق الــرواد

وفى قـــول عبـــاد بن شــداد :

فـــان تــرينى ضــعيفا قاصــرا عنقى
فقــد اكعكـــع عــنى عـــدوة العـــادى

وقــد إفيىء باشــواب الــرئيس وقـــد
اغـــدو على سـلهب للـوحش صـــياد

وحديث المــاضى وما كان يزخــر به من قــوة وفتــوة فى معــرض التعجب والتحسر دليــل على تعلق النفس بالحيــاة ، وتعبير عن مكنون فطــرتها فى حب العيش وكــراهية فــراق الدنيــا ، وان كان هذا الأمــر

وأضحا فى رثاء النفس ، فان الشعراء يذكرون ماضى من يرثونهم ، فى اشارة الى تبدل الأحوال وانقضاء الآجال ، وفى تنبه الشاعر لذلك دليل على ادراكه للمصير الذى ينتظره ، وأنه لاحق بمن يرثيه لا محالة .

كما ورد ذكر الماضى والمقارنة بين الحياة والموت فى شعر الحكمة الذى اتخذ الموت موضوعا له ، على نحو ما نجد فى قول بشر بن أبى خازم :

وكل نفس امرىء وان سلمت
يوما ستحسو لميتة جرعا

فقد جمع بين السلامة والموت .

ويجتمع الأمران فى قول عنترة :

يخوض الشيخ فى بحر المنايا
ويرجع سالما والبحر طام
وياتى الموت طفلا فى مهود
ويلقى حتفه قبل الفطام

ففى البيت الأول صورة للحركة والسلامة والنجاة ، وفى البيت الثانى صورة للموت والهلاك .

ثانيا : ذكر الأهل والأصحاب والرفاق :

وكما استعاد الشعراء ماضيهم وهم يواجهون الموت ، ذكروا أوطانهم وأهليهم وأصحابهم ورفاقهم وندبوهم فى محاولة للتقوى بهم والائتناس، اذ يشعر الشاعر فى لحظة سيطرة فكرة الموت عليه بكثير من الضعف والوحشة ، فيلتمس فى تذكره أهله وندائهم عونا له على ما يعانيه . هذا المرقش الأكبر يخاطب صاحبيه :

يا صاحبى تلوما لا تعجلا ان الرحيل رهين الا تعذلا

ويذكر أخويه أنسا وحرملا :

يا راكبا اما عرضت فبلغا أنس بن سعد ان لقيت وحرملا

ويخاطب افنون التغلبى صاحبه فيقول :

فطنا معرضا ان الحتوف كثيرة

وانك لا تبقى بمالك باقيا

وخاطب عبد القيس بن خفاف ولده فقال :

اجبيل ان اباك كارب يومه

فاذا دعيت الى العظائم فافعل

وقال كعب الغنوى فى رثاء أخيه مخاطبا صاحبيه :

فخبرتمانى انما الموت بالقرى

فكيف وهذى روضة وكثيب

ووجه عبد يغوث الخطا بالى صاحبيه وندماه فقال :

ألا لا تلومانى كفى اللوم ما بيا

فما لكما فى اللوم خير ولا ليا

ألم تعلما أن الملامة نفعها

قليل وما لومى أخى من شماليا

فيا راكبا اما عرضت فبلغن

نداماى من نجران الا تلاقيا

ثالثا : الحضور القوى للمرأة :

من الظواهر الواضحة فى شعر الموت الحضور القوى للمرأة فى

ذهن الشاعر وذكرها والحكاية عنها ، وقد ورد ذكر المرأة فى عدة نماذج هى :

(أ) نموذج المرأة الساخرة العاذلة المستهزئة ، كما فى قول امرىء القيس :

فبعد اللوم عاذلتى فانى
ستكفينى التجارب وانتسابى

وفى قول عبد يغوث :

وتضحك منى شيخة عبشمية
كان لم ترى قبلى اسيرا يمانيا

وفى قول عباد بن شداد :

وتهزا العرس منى أن رات جسدى
احدب لم تبق منه غير اجلاد

(ب) نموذج الزوجة الوفية والمحبوبة الأثيرة :

وذلك كما فى قول عبد يغوث :

وقد علمت عرسى مليكة اننى
انا الليث معدوا على وعاديا

وفى قول عبد القيس بن خفاف :

افاطم انى هالك فتبينى
ولا تجزعى كل النساء يئيم
ولا انبان أن حر وجهك شانه
خموش وان كان الحميم حميم

وفى قــول عنتــرة :

يا عبـل أين من المنيــة مهربى

أن كان ربى فى الســماء قضــاها

(حـ) الابنــة الحبيبة التى ينتظــر الشــاعر منها بكاءه والحــزن من أجله ، كما فى قول بشــر بن أبى خــازم :

اســائلة عمــيرة عــن أبيهــا

خــلال الجيــش تعتــرف الــركابا

الى أن يقــول :

فمن يك ســائلا عن بيت بشـــر

فــان لــه بجنــب الــرد بــابا

رهــين بلى وكل فتى ســبيلى

فــاذرى الدمــع وانتحبى انتحــابا

وفى قــول طــرفة يخاطب ابنة أخيه :

فــان مت فانعينى بما أنا أهــله

وشقى على الجيــب يا ابنــة معبد

وفى طلبهم من بناتهم البكاء عليهم التماس للتعــزى عن الموت فى حــزن ذويهم وذكــرهم اياهم ٠

(د) نموذج الأم الرءوم :

وقد ورد ذكــر هذا النموذج فى اطــار المقــارنة بين وفاء الأم وغدر الزوجة التى تتغير عواطفها نحو زوجها عندما تتغير أحواله ، ويفقد قــوته ومنزلته ، وذلك كمــا فى قــول صــخر بن عمــرو الشــريد :

أرى أم صخر لا تمل عيادتى

وملت سليمى مضجعى ومكانى

فاى امرىء ساوى بأم حليلة

فلا عاش الا فى شقى وهوان

(هـ) نموذج المرأة المتعة :

وقد ذكرت فى سياق المتع التى تغرى بالحياة وتحببها ، وترغب النفس فى الدنيا ، وتنفرها من الموت ، وذلك فى قول

طرفة بن العبد مثلا :

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

ببهكنة تحت الطراف المعمد

وحضور المرأة فى شعر الموت على هذا النحو لا تختلف علته – فى رأيى – عن علة ذكر الماضى وذكر الأهل والرفاق ، فهو تعبير عن تعلق النفس بالحياة ورغبتها فى استبقائها بتذكر عناصرها المهمة .

رابعا : الحديث عن القبر :

وقد ذكر الشعراء القبر ووصفوه بوصفه البيت الأخير الذى ينزله الانسان ، والمصير الذى ينتهى اليه ، وذلك كما فى قول يزيد بن خذاق :

وأرسلوا فتية من خيرهم حسبا

ليسندوا فى ضريح الترب اطباقى

وكما فى قول بشر بن أبى خازم :

فمن يك سائلا عن بيت بشر

فان له بجنب الردة بابا

ثوى فى ملحد لابد منه كفى بالموت نايا واغترابا

وكما فى قول عبد القيس بن خفاف :

ومشيد دارا ليننزل داره نزل القبر وداره لم ينزل

وفى قول دويد بن زيد بن نهد :

اليوم يبنى لدويد بيته لو كان للدهر بلى ابليته

وفى قول المهلهل :

سألت الحى أين دفنتموه فقالوا لى بسفح الحى دار

فسرت اليه من بلدى حثيثا وطار النوم وامتنع القرار

وحادت ناقتى عن ظل قبر ثوى فيه المكارم والفخار

وفى قول ليلى بنت طريف :

بتل بناثا رسم قبر كانه على جبل فوق الجبال منيف

تضمن جودا حاتميا ونائلا وسورة مقدام وراى حصيف

الا قاتل الله الحشى كيف أضمرت

فتى كان للمعروف غير عيوف

فان لا تجبنى دمنة هى دونه

فقد طال تسليمى وطال وقوفى

وفى قول حاطب بن قيس :

سلام على القبر الذى ضم اعظما

تحوم المعالى حوله فتسلم

سلام عليه كلما ذر شارق

وما استقطع من دجى الليل مظلم

فيا قبر عمرو جاد ارضا تعطفت
عليك ملث دائم القطر مرزم
تضمنت جسما طاب حيا وميتا
فأنت بما ضمنت فى الأرض معلم
فلو نطقت أرض لقال ترابها
الى قبر عمرو الأزد حل التكرم

وفى قول طرفة :

أرى قبر نحام بخيل بماله
كقبر غوى فى البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهما
صفائح صم من صفيح منضد

وهم فى تعبيرهم عن هذه الأفكار والمامهم بتلك المعانى ، يصدرون عن فطرتهم واحساسهم ، وعن خبرتهم المستمدة من واقع بيئتهم ونظم عيشهم ، ولذا فقد اتسم تناولهم للأفكار بالقرب والوضوح وعدم التعقيد وقلة التعمق ، فهم ليسوا أصحاب فلسفة ولا ورثة علوم ، ونظم عيشهم كانت بدائية بسيطة ، وبيئتهم التى عاشوا فيها هى التى أمدتهم بمعارفهم ، وهى التى وجهت عواطفهم وكونت آراءهم فى الوجود والحياة والمصير .

* * *

الفصل الثانى

السمات الفنيـــة

يتصف شــعر الموت بعـدة سمات تميزه من حيث المعالجة الفنيـــة عن غيره من الوان الشعر الجاهلى ، وهذه السمات هى :

أولا ـ الوحـــدة الموضـــوعية :

فى بحثنا عن الوحـــدة فى شـــعر الموت لا مندوحة لنا من اخراج شـــعر الحكمة من هـــذا الشعر فى ذلك المبحث ، لأن الحكمة التى تناولت الموت لم تنفرد بقصيدة أو مقطوعة ـ غالبا ـ وانما كانت أبياتا متفرقة فى ثنايا القصائد أو آخرها .

يبقى عندنا فى هـــذا المبحث النمطان الآخران لشعر الموت ، وهما رثاء النفس ، ورثاء الآخرين ، وهـــذان النمطان يندرجان تحت عنوان واحد فى أبواب الشعر العربى هو الرثاء .

وقـــد تميزت أشعار الموت فى هـــذين النمطين بوحـــدة الموضـــوع ووحـــدة الجو النفسى ، وهى تختلف فى منهجها وبنائها عن المنهج العام للقصيدة الجاهلية ،هذا المنهج الذى كان يقضى بتعدد الأغراض والموضوعات فى القصيدة الواحـــدة ، وببدئها بمقدمة غزلية أو طللية ثم الانتقال الى الوصـــف ، ثم المدح ـ أو الفخر .. أو غير ذلك من الأغراض .

وطبيعة الرثاء هى التى فرضت هـــذا المنهج وتطلبت هـــذا البنـــاء « فجو الحزن ، وعظم المصيبة ، والشـــعور بالفناء ، من أصعب الأجواء

التى تقيـد النفس البشرية بقيودها ، فلا تدعها تنطلق الى أجواء أخرى كالنسيب أو الغزل »(١) .

وقد أشـار الناقد الكبير ابن رشيق الى ذلك فى قوله :

« ليس من عـادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيبا كما يصنعون ذلك فى المديح والهجاء .. لأن الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو فيـه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة »(٢) .

وفى قول ابن رشيق بوجوب انشغال الشـاعر عنـد الحـديث عن الموت بالحسرة والاهتمام ما يدل على أن بدء المراثى بالغزل معيب ، وأن خلط الرثاء والحديث عن الموت بموضوعات أخـرى لا يليق ، ولا يقدح فى الوحـدة الموضوعية والنفسية التى نثبتها لشـعر الموت فى نمطيه (رثاء النفس ورثاء الآخرين) ما ألم به الشعراء من حـديث عن ماضيهم فيما يشبه الفخر ، أو ماضى من يرثونهم فيمـا يشـبه المـديح ، اذ أن هـذا الحـديث مرتبط أشـد ارتباط بمـا قصـد اليه الشـعراء من تعبير عن الحسرة والألم ، والتعجب من تبدل الأحوال وتغيرها .

وهو فى الوقت نفسه اعـلاء للذات وتثبيت للنفس وتعزية وتقوية واقناع ، حتى لا تتمزق وتنهار أمـام عاصـفة الموت . والأمر كذلك فى حديثهم عن السـنة الدائمـة فى مـوت الناس جميعا ، وتمثلهم بمـوت السابقين ، لا يعـد شىء من ذلك خروجا على وحـدة الموضـوع أو على وحـدة الجو النفسى .

وحسب هذا الشـعر أن يتمثل فيـه هذا القدر من الوحدة ، وأظـن

---

(١) رثـاء النفس بين عبد يغـوث ومالك بن الريب ص ٧٥ د. ابراهيم الحاوى .

(٢) السابق ص ٧٥

أنه من التعسف أن يبحث عن وحـدة أعقـد من ذلك هى ما يسمى فى النقـد الحديث بالوحدة العضوية ، وهى تستدعى تماسكا بين الأفـكار والأبيـات وترتيبـا منطقيا يجعل أبيـات القصيدة متلاحمة حتى ليصعب تغيير مكان بيت أو حـذفه أو تقديمه أو تأخيره ٠ فالمشاعر التى تسـتبد بالشاعر ، ويعبر عنها لا تتيح له فرصـة التدقيق والترتيب والتنظيم حتى تخرج قصيدته على النحو الذى يريده النقـد الحديث الداعى الى الوحـدة العضوية ٠

ثانيـا ـ الصـدق فى العاطفـة :

لا شـك فى أن الشـاعر عندما يعبر عن موقفه فى مواجهة المـوت راثيا نفسه أو راثيا غيره ، أو مصورا رأيه واعتقاده فى أبيـات من الحكمة بشأن هـذا القدر الجارى على الناس جميعا ، يعايش تجربته أصدق وأتم ما تكون المعايشـة ، حتى تملك عليه تجربته فكره وحواسـه ، لأن جو الحزن فى هـذا الموقف يملأ على الشـاعر وجـدانه ويحيـط به من كل جانب ، والتجـربة هنا تجربة شخصية تنصهر داخل الشاعر ، ويخلص لها ، ومنبعها هو احساس الشاعر بالغربة والفناء فى مواجهة الموت ٠

واذا كانت العـاطفة تحتمل الصـدق والكـذب فى أغـراض القول المختلفة كالمديح والهجاء والغـزل والفخر ، فانها هنـا لا تحتمـل غير الصـدق ، اذ كيف يزور الانسـان مشاعره أمام نفسه ، وهو يواجه الموت يصرعه ، أو يصرع أحـد أقاربه الأدنين ـ الأخ أو الابن أو الصديق ؟ !

ان شـعر الموت يفيض بالصـدق النفسى الذى يحسـه المرء فى كل بيت وفى كل جملة ، فليس الموقف مـوقف ادعـاء زائـف ، وليس هنا عطـاء يخطف بصر الشـاعر ويخلب لبـه ، فيغـريه بالكذب ، وليس الدافع الي هـذا الشـعر رهبة من ملك أو أمير أو غيرهما تنجي منهـا

الممالاة والمجاملة ليتجنب الشاعر البطش ، ولو جانب الصدق فى مديحه وتملقـــــه .

وليس الدافع هنــا كذلك ارادة الانتصار للقبيلة والاعــلاء من ذكرها مما يدعو الى التزيد والادعــاء . كما يحــدث فى الفخر . وليس هنــا رغبة فى التشـفى بالحط من شـأن الآخرين ورميهم بالمثالب ـ حقا أو باطلا ـ كما يحــدث فى الهجاء .

ان الشاعر فى تأمله لحقيقة الموت وتعبيره عن رأيه فيها ، واحساسه بهــا يواجــه قوة لا تنفع معها مراوغة ولا مناوأة ، ولا تشـــفع عنــدها مجاملة ولا تملق ، ولا يجــدى أمامها كذب أو ادعــاء .

انه فى هــذه الحالة لا يجــد أمامه غير التســليم والخضـــوع فى طواعية وصــدق ، ينبعثان من أعمــاق نفسه الكسيرة العاجزة أمــام هذا القــدر الجبــار .

وهل يخفى صدق العاطفة فى قول امرىء القيس :

الى عرق الثرى وشجت عــروقى   وهــذا المــوت يســلبنى شـبابى
ونفسى ســوف يسـلبها وجــرمى   فيلحقنى وشـــيكاً بالتـــراب

أو فى قول بشر بن أبى خــازم :

فمــن يــك ســـائلا عن بيت بشر   فان لـــه بجنـــب الـرده بـــابا
رهـــين بلى وكل فتى سـيبلى   فأذرى الدمــع وانتحبى انتحــابا
ثــوى فى ملحــد لابــــد منــه   كــفى بالمــوت نايــآ واغتـــرابا

أو فى قول عبــد يغــوث :

فيا راكبــا أمــا عرضـت فبلغـن   نداماى من نجران أن لا تلاقيـــا

ومثل ذلك كل ما قيل في رثاء النفس :

وهل يخفى الصدق فى قول كعب بن سعد الغنوى :

فخبرتمانى انمـا المـوت بالقـرى فكيف وهـذى روضـة وكثيب

أو فى قول سعدى بنت الشمردل فى رثاء أخيها :

غادرته يـوم الرصـاف مجنـدلا خبر لعمـرك يـوم ذلك أشـنع

أو فى قول ليلى بنت طـريف :

فيا شـجر الخابـور مالك مورقـآ كانك لم تجزع على ابن طـريف

ومثل ذلك كل ما أوردناه من رثاء الآخرين .

بل هل يخفى الصـدق فى قول زهـير :

ومن هـاب أسـباب المنـايا ينلنه وان يرق أسـباب السماء بسـلم

أو فى قول طـرفة :

لعمرك ان الموت ما أخـطأ الفتى لكالطول المـرخى وثنيـاه باليـد

أو فى قـول عنترة :

يا عبـل أين من المنيـة مهـربى ان كان ربى فى السـماء قضـاها

ومثل ذلك كل أبيـات الحكمة التى نطقوا بها فى أمر المـوت ، لأن النفس فى معالجة هـذا الأمر لا تجد طريقا آخر غير الصدق البرىء من كل شائبة ، به تطرح النفس همها وتزيل كدرها ، فتظهر على حقيقتها دون خفـاء ، ومن أجـل هذا الصـدق عـد أسلافنا شعر الرثاء أجـود الشعر ، فقـد روى الجاحظ نقـلا عن الباهلى أنه قيل لأعرابى : مابال المراثى أجود أشعاركم ؟ قال : لأنا نقول وأكبادنا تحترق(٣) .

---

(٣) انظر رثاء النفس بين عبد يغوث ومالك بن الريب ص ٢٢

وذكر البيهقى فى المحاسن والمساوىء أنه قيل لأبى عبيدة :

ما أجود الشعر عندكم ؟ فقال : النمط الأسود ٠ يعنى المراثى(٤)٠

ثالثـا ـ وضوح الألفـاظ وسهولة الأساليب :

أدوات الشاعر هى ألفاظ اللغـة وتراكيبها ، وطرائق التصـوير وأساليبه ، بها يعبر الشـاعر عن نفسـه ويعلن ما فى ضـميره ، وبهـا يصور دقائق فكره وخفايا مشاعره ٠

وبالنظر فى الألفاظ التى استخدمها الشـعراء ، والأسـاليب التى سلكوها للتعبير عن احساسهم بالموت ، نجـدها ألفاظا سهلة واضـحة، قلما تجنح الى اغراب أو غموض ، وأساليب مستوية صـافية لا التـواء فيها ولا تعقيـد ٠

ومرد ذلك الى أن الشـاعر فى حـديثه عن الموت يصـدر عن فطرته من غير تحسـين ولا تزيين ، والفكرة التى تشـغله لا تترك له مجـالا للتحكيك والاختيـار ، فيعبر عن نفسـه بأقرب الألفاظ وأسـهل التراكيب وقد أضفى هـذا الوضـوح على شـعرهم فى الموت مزيدا من الجمال ٠

« ان الشعر الذى يصدر عن لواعج النفس بكل ما فى هـذه النفس من بسـاطة الشـعور ورقة الحال لا يدهش أن تأتى ألفاظه سـهلة بسيطة موحيـة »(٥) ٠

رابعـا ـ غلبـة ضمير المتكلم :

يكثر استخدام ضـمير المتكلم فى شـعر المـوت ، ويتردد أكثر من غيره من الضمائر ، ويبـدو أن التجربة الذاتية فى هـذا الشعر هى التى

---

(٤) السـابق ص ٢٢
(٥) السـابق ص ٢٦

اقتضت ذلك ، فامرؤ القيس مثلا يستخدم ضمير المتكلم أكثر من عشرين مرة فى أبيات لم تتجاوز الثلاثة عشر بيتا فى قصيدته التى يقول فيها :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

وفى قصيدة عبد يغوث لا يكاد بيت يخلو من ضمير المتكلم ، واستخدم الأسود بن يعفر ومخارق بن شهاب وصخر بن عمرو الشريد ويزيد بن خذاق ضمير المتكلم فى الشعر الذى رثوا به أنفسهم كثيرا .

وبعض الشعراء راوح بين استخدام ضمير المتكلم وضمير الغائب فى رثاء النفس ، لكن ضمير الغائب يدل على الشاعر أيضا على طريقة التجريد ، فلا يخرج فى حقيقته عن حال التكلم ، وذلك فى مثل قول بشر بن أبى خازم :

فمن يك سائلا عن بيت بشر فإن له بجنب الرده بابا

وفى قول دويد بن زيد بن نهد :

اليوم يبنى لدويد بيته لو كان للدهر بلى أبليته

وقول المرقش :

من مبلغ الأقوام أن مرقشا أمسى على الأصحاب عبئا مثقلا

وفى رثاء الآخرين استخدم ضمير المتكلم بكثافة كذلك ، فكعب بن سعد الغنوى يعبر به سبع مرات فى ثمانية أبيات ، كما لا تخلو قصيدة المهلهل فى رثاء أخيه من هذه الكثافة ، فهو مثلا يقول :

أهاج قذاة عينى الادكار هدوءا فالدموع لها انحدار

وصار الليل مشتملا علينا كأن الليل ليس له نهار

وأبكى والنجوم مطلعات كأن لم يحوها عنى النجار

وهكذا الى آخر الأبيــات ٠

ويشيع ضمير المتكلم فى قصيدة سلمة بن يزيد التى رثا بها أخاه :

اقول لنفسى فى الخـلاء الومهـا لك الويـل ما هذا التجلد والصـبر

الا تفهمين الخـبر ان لست لاقيـا أخى اذا ما اتى دون اكفانه القبر

وكنت اذا يـاتى به بـين ليـلة يظل على الاحشاء من بينه الجمر

ولا يختلف شـعر الحكمة فى هـذه الظاهرة عن رثاء النفس ورثاء الآخرين فقد استخدم الشـعراء ضمير المتكلم ، فى تعبيرهم عن رؤيتهم للمـوت واحساسهم به ٠ فزهير بن أبى سلمى يقول :

رايت المنايا خبط عشـوا من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

ويقــول عنترة :

يا عبـل اين من المنيـة مهـربى ان كان ربى فى السـماء قضـاها

وقال قس بن ساعدة :

لمـــا رايت مــــواردا للمـوت ليس لهـا مصـادر

ورايت قـــومى نحـــوها يمضى الأصــاغر والأكــابر

الى آخـر الأبيــات :

وقال طـرفة :

فذرنى أروى هامتى فى حيـاتها ستعلم ان متنا غدا أينا الصـــدى

ارى قــبر نحـــام ٠٠٠ـ ارى الموت يعتـام الكـرام ٠٠٠

ارى الموت أعـداد النفوس ٠٠٠ ارى العيش كـنزا ناقصـا ٠٠٠

الى آخـر الأبيــات ٠

خامسا ـ شيوع أسلوب الاستفهام :

من الظواهر الواضحة في شعر الموت شيوع أسلوب الاستفهام وهو استفهام مجازى يؤدى معانى التعجب والتحسر والنفى والانكار .

يبدا يزيد بن خذاق ابياته فى رثاء نفسه باستفهام يريد به النفى حيث يقول :

هل للفتى من بنات الدهر من واق ... أم هل له من حمام الموت من راق

وادى الاستفهام معنى التعجب فى قول عمرو بن قميئة :

رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى
فكيف بمن يرمى وليس برام

واذا ما رآنى الناس قالوا الم تكن
جليدا حديث السن غير كهام

كما أدى معنى التمنى فى قول المرقش :

من مبلغ الاقوام ان مرقشا ... امسى على الأصحاب عبئا مثقلا

واريد به التعجب والانكار فى قول سعدى بنت الشمردل :

أمن الحوادث والمنون أروع ... وابيت ليلى كله لا اهجع
افليس فيمن مضى لى عبرة ... هلكوا وقد ايقنت أن لن يرجعوا

وفى قول سلمة بن يزيد :

اقول لنفسى فى الخلاء الومها ... لك الويل ما هذا التجلد والصبر
الا تفهمين الخبر ان لست لاقيا
اخى اذا ما اتى من دون اكفانه القبر

وفى قول ليلى بنت طريف :

الا قاتل الله الحشى كيف اضمرت ... فتى كان للمعروف غير عيوف

فيا شجر الخابور مالك مورقا   كأنك لم تجزع على ابن طريف

وهكذا وظف الشعراء أسلوب الاستفهام فى أداء المعانى المناسبة للتجربة التى أرادوا التعبير عنها .

سادسا ـ واقعية الصورة :

اعتمد شعر الموت ـ غالبا ـ على التعبير المباشر ، وقلت فيه الصور التخييلية كالتشبيه والاستعارة وغيرهما ، وكثرت فيه الصور الكلية النفسية التى ترمى الى بيان المشاعر على حقيقتها ، ووصف أثر الموت فى نفس الشاعر واحساسه به .

ولأن حقيقة الموت تسمو فوق كل تصوير وتعجز أى خيال ، استخدم الشعراء الأساليب المباشرة ، ولم يلجأوا الى الصور الجزئية الخيالية الا فى اطار محدود ، كما فى قول امرىء القيس :

واعلم أننى عما قليل   سانشب فى شبا ظفر وناب

يقصد المنية التى صورها وحشا مفترسا ذا ظفر وناب .

وكما فى قول عبيد :

وللمرء أيام تعد وقد رعت   حبال المنايا للفتى كل مرصد

وقول عنترة :

يخوض الشيخ فى بحر المنايا   ويرجع سالما والبحر طام

وقول طرفة :

لعمرك ان الموت ما اخطأ الفتى   لكالطول المرخى وثنياه باليد

وقول زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

فهـذه صـور جزئية اعتمدت الخيال طريقا لها فيما تضمنتـه من تشبيه أو استعارة ، وفيما عـدا ذلك عبر الشعراء عن رؤيتهم للمـوت واحسـاسهم به عن طريق الصـور النفسـية الكليـة المبـاشرة ، التى لم تصطنع التخييـل .

ولم تقـلل هـذه المباشرة من جمـال هذا الشعر ، ولم تغض قـلة الخيال فيه من قدره ، فصـدق العاطفة ودقة الوصـف وايحاءات الألفـاظ وعفوية التعبير ، كفلت لهـذا الشعر أسـباب جماله وجودته وخلوده .

ولا أدل على ذلك من استحسان نقادنا القدامى المشهود لهم بالذوق السـليم والرأى السـديد لكثير من نماذج هـذا الشـعر ، فقد استحسن الأصمعى وابن قتيبة والقرشى والقالى قصيدة كعب بن سـعد الغنوى ، ورووها . واستحسن المفضل وابن عبد ربه وغيرهما قصيدة عبد يغـوث وررووهـا .

كما استحسنوا أشعار امرىء القيس وطرفة وعبيـد وبشر بن أبى خازم ويزيد بن خذاق وغيرهم ممن تقـدم الكلام عنهم .

ومضى على هذا الاستحسان أجيال متتابعة يتمثلون بهـذا الشـعر ويروونه ، ويجدون فيـه أصـدق تعبير عن العـاطفة الانسانية عنـدما تهتز للموت واقعا أو فكرة .

وحسب هذا الشعر ذلك وأقل منه .

* * *

الخـــاتمة

كانت هــذه رحــلة ، حاولت خلالها استكناه ضـمائر الشعراء في العصر الجــاهلى ، وتحسس مشـــاعرهم ، والتجسس على سرائرهم والتعرف على أفكارهم وخواطرهم ، وهم يواجهون المـوت عنـدما كان يحضر احــدهم جريحا أو أسـيرا أو مريضــا ، أو يستحضره أحــدهم أوقات التفكر والتامل والاعتبـار ٠

ولم تكن الرحـلة سـهلة ميسرة ، ولكنها مع ذلك كانت مفيـدة وممتعــة ، إذ صدقت ما كنت اعتقده من حتمية انشغال الشاعر الجاهلى بأمر الموت ، واحساسه به ـ على الرغم مما قالوه فى الشجاعة والاقدام وعــدم المبالاة بالموت ـ مما يظن معه أن احساسهم به كان ضعيفا وأن انشغالهم بأمره كان قليلا ٠

ولقد حققت هذه الدراسـة ـ بحمد الله ـ نتـائج تهون من أجلهـا المشقات ، وهذه النتائج هى :

أولا : الاهتــداء الى الدوافع التى ضاعفت من قلق الشاعر الجاهلى من الموت وزادت احساسه به ، والتى تمثلت فى قسوة البيئة ونظم العيش وظروف الحيــاة ٠

ثانيــا : ادراك أثر الدين الصحيح والعقيدة السليمة فى ارضـــاء النفس ، وتقرير أن الجاهليين افتقــدوا الرضا والطمانينة بسبب افتقادهم الديــن الصــحيح ٠

ثالثــا : احصــاء الشعراء الذين رثوا أنفسهم ، والترجمة لهم وقــد بلغوا أربعــة عشر شــاعرا ، أكثرهم من المغمورين ٠

رابعا : لمست الدراسة مواطن الاحساس بالموت عند الشعراء الجاهليين فى غرضى الرثاء والحكمة ، واوردت النصوص الناطقة بهذا الاحساس .

خامسا : كشفت الدراسة عن مجموعة من الخصائص الموضوعية والفنية التى اتسم بها شعر الجاهليين فى موضوع الموت .

هذه هى أهم النتائج التى حققتها هذه الدراسة ، فان كانت جديرة بأن تشفع لها بالقبول ، فالحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وأن كانت غير كذلك ، فلا حول ولا قوة الا بالله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف

المصـادر والمـراجع

١ ـ **القـرآن الكريم**

٢ ـ **الأصـمعيات** ـ للأصمعى ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة

٣ ـ **الأغـانى** ـ لأبى الفرج الإصفهانى ـ دار عز الدين للنشر ـ بيروت

٤ ـ **بشر بن أبى خـازم ـ حياته وشعره**

رسالة ماجستير بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة ـ اعـداد حسن احمـد عبد السـلام

٥ ـ **تاريخ الأدب العربى** ـ أحمد حسن الزيات ـ وزارة المعارف المصرية الطبعـة ٢٥

٦ ـ **تاريخ الأدب العربى ـ العصر الجاهلى**

د٠ شوقى ضيف ـ دار المعارف ـ الطبعة الثامنة

٧ ـ **تاريخ الأدب العـربى** ـ عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت

٨ ـ **تاريخ النقـد الأدبى عنـد العـرب** ـ د٠ احسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

٩ ـ **جغرافية شـبه الجزيرة العربيـة** ـ د٠ محمود طه أبو العلا الأنجلو المصرية ـ١٩٧٧

١٠ ـ **جواهر الأدب فى أدبيات وانشاء لغة العـرب**

السيد أحمد الهاشمى ـ المكتبة التجارية ـ ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م ٠

١١ ـ **خزانة الأدب** ـ للبغدادى ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ الخانجى بالقـاهرة

١٢ ـ **ديوان أميـة بن أبى الصلت** ـ المكتبة الأهلية ـ بيروت

١٣ ـ **ديوان بشر بن أبى خازم** ـ تحقيق د٠ عزه حسن ـ دمشق ـ ١٩٦٠

١٤ ـ **ديوان زهير بن أبي سلمي** ـ دار صادر ـ بيروت

١٥ - ديوان عبيد بن الأبرص - تحقيق وشرح د. حسين نصار - الحلبى
١٦ - ديوان عنترة بن شداد
١٧ - ديوان طرفة بن العبد - تحقيق د. على الجندى
مكتبة الانجلو المصرية
١٨ - ديوان النابغـــة   دار الكتب العلمية - بيروت
١٩ - رثاء النفس بين عبد يغوث الحارثى ومالك بن الريب
د. ابراهيم الحاوى - الرسالة - بيروت
٢٠ - الرثاء فى الشــعر العربى - د. محمود حسن أبو ناجى
دار الحياة - بيروت - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م
٢١ - شرح القصائد المشهورات - لابن النحاس
دار الكتب العلمية - بيروت
٢٢ - شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات
لأبى بكر بن محمد القاسم الانبارى - تحقيق عبد السلام هارون
دار المعــارف
٢٣ - شرح القصــائد العشر للتبريزى
ضبطه وصححه عبد السلام الحوفى - دار الكتب العلمية ١٤٠٥ هـ
٢٤ - شرح المعلقات السبع للزوزنى - المكتبة التجارية بالقاهرة
٢٥ - شرح المفضليات للتبريزى - تحقيق على محمد البجاوى
مكتبة نهضــة مصر بالقاهرة
٢٦ - شعر بنى تميم فى العصر الجاهلى
جمع وتحقيق د. عبد الحميد محمود المعينى - منشورات نادى القصيم الأدبى ١٤٠٢ هـ
٢٧ - شعراء بنى قشير فى الجاهلية والاســلام
د. عبد العزيز محمد الفيصل - الحلبي ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

٢٨ - الشعر والشعراء لابن قتيبة - تحقيق د٠ مفيد قميحة وزرزور - دار الكتب العلمية - بيروت ٠

٢٩ - الصورة الفنيــة فى الشعر الجاهلى فى ضوء النقد الحديث د٠ نصرت عبد الرحمن - بغداد

٣٠ - العقد الفريد لابن عبد ربه - دار الكتاب العربى - بيروت

٣١ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام : تحقيق محمود شاكر ٠

٣٢ - طرفة بن العبد - حياته وشعره - د٠ محمد على الهاشمى عالم الكتب - بيروت ٠

٣٣ - قلق الموت - د٠ أحمد محمد عبد الخالق - عالم المعرفة - الكويت ١٩٧٨ م

٣٤ - معجم البــلدان - ياقوت الحموى - دار بيروت - ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م

٣٥ - الوصايا والحكم فى الأدب الجاهلى
رسالة ماجستير بمكتبة كلية اللغــة العربية بالقاهرة
اعــداد محمد عبد الجواد فاضل

الفهـــرست

الخطأ والصواب

السطر	الصفحة	الخطأ	الصواب
١٥	١٧	له	لم
٣	١٨	وإذ الآل	وإذا الآل
٤	٢٤	النضاره	النضار
٢١	٢٤	تمخع	تخمع
١١	٢٧	أو تحت	أوتحت
١٣	٢٧	آلت	آل
٢١	٢٧	آلت	آل
١٨	٢٨	بم	بن
١	٣٧	على وبتض	على كذا وتبض
١	٣٨	قشير أو	قشيرأو
١٣	٤	يعو	يدعو
٧	٧٠	ابنته	فتذكر ابنته
٨	٧٠	مكرر	
٣	٨٧	بسيل	يسيل
١٥	٩٠	المعجت	المعجب
١١	٩١	مهاجر	مهاجرة
٥	١٠١	وليهونوا	ليهونوا
١٦	١١٢	ويدركوه	ويدركاه
١٢	١١٦	مر ملينا	مرملينا
١٣	١١٧	بالقوى	بالقرى
١٤	١٢١	تلقاناه	تلقانا
٦	١٢٧	ويبدو	ويبده

السطر	الصفحة	الخطأ	الصواب
٦	١٣٦	فرس	فرس قوية
١٦	١٣٦	وعبوبة	رعبوبة
٥	١٤٧	فبعد	فبعض
٣	١٥٠	ليترك	لينزل

توزيع دار اللــواء
تليفون ٦٤١٨٠٧

رقـم الايداع بدار الـكتب والوثائق القومية
١٩٩١ / ٣٢٤٩

مطبعـة الحسين الإسـلاميـة
٢٥ حارة المـدرسـة خلف الجامـع الأزهـر